فى ظلال القرآن

الجزء العاشر

بقلم

سيد قطب

الطبعة الأولى

طبع بدار إحياء الكتب العربية
عيسى البابى الحلبى وشركاه

إهـــــــداء ٢٠٠٦

المرحوم الدكتور/ علي حسين كرار
القاهرة

إهـــــــداء ٢٠٠٦

المرحوم الدكتور/ علي حسين كرار
القاهرة

في ظلال القرآن

الجزء العاشر

بقلم

سيد قطب

الطبعة الأولى

طبع بدار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

سورة الأنفال



« وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَى وَٱلْيَتَامَى وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ، إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ، وَٱللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا ، وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَى ـ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ـ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي ٱلْمِيعَادِ ؛ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولًا ، لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ؛ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ؛ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ؛ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا ، وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ ، لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً ؛ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ .

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ؛ وَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ، وَٱصْبِرُوا إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَراً وَرِئَاءَ ٱلنَّاسِ ، وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ ، وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ * وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ، وَقَالَ : لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ ، وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ ؛ فَلَمَّا تَرَاءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ ، وَقَالَ : إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ ، إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ ، إِنِّي أَخَافُ ٱللَّهَ ، وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ * إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَافِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ : غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ ؛ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

« وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ؛ وَذُوقُوا عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ، وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ * كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ ٱللَّهِ ، فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ،

إنَّ اللهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ، وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ، فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ، وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ » .

نمضى فى هذا الجزء مع بقية سورة الأنفال ــ وقد ألممنا بالخطوط الرئيسية للسورة فى مطلعها عند نهاية الجزء التاسع ــ وفى هذا الدرس نجد بيانا عن توزيع الغنائم ، بعد أن ردت ملكيتها ابتداء لله وللرسول فى أول السورة ؛ ليعود الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ فيوزعها على المقاتلين وفق شريعة الله .

وبمناسبة الحديث عن الغنائم يعود السياق إلى تذكير المسلمين بالموقعة التى أنتجت هذه الغنائم ، فيعيد استعراضها كأنها تقع من جديد .. يصور مواقف الخصمين ومشاعرهما ؛ ويكشف عن تدبير الله للفريقين ، ذلك التدبير الذى أدار المعركة لحكمة ، ووجهها لتحقيق هذه الحكمة .

وعندئذ يأمر الذين آمنوا بالثبات عند لقاء العدو ؛ ويكشف لهم عن عوامل النصر ؛ ويحذرهم البطر والتظاهر بالقوة افتخارا واستطالة على الناس ، كما يفعل الكفار . ويصور لهم عاقبة الكفار المتطاولين ، حين تمضى فيهم سنة الله التى لا تتخلف مع القوم الظالمين .

* * *

« واعلموا أن ما غنمتم من شىء ، فأن لله خمسه وللرسول ، ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان . والله على كل شىء قدير » .

لقد نزع الله ملكية الغنيمة ممن يستولون عليها فى المعركة ، وردها إلى الله والرسول

– فى أول السورة – ذلك ليخلص الأمر كله لله والرسول ، وليتجرد المجاهدون من كل ملابسة من ملابسات الأرض ؛ وليسلموا أمرهم كله – أوله وآخره – لله ربهم وللرسول إمامهم ، وليخوضوا المعركة لله،وفى سبيل الله ، وتحت راية الله ، ولطاعة الله ، وبتوجيه الله ، وبتحكيمه فى أرواحهم وأبدانهم وأموالهم بلا معقب ولا اعتراض .

حتى إذا اطمأنت نفوسهم وأسلموا الأمر لله كله ، عاد ليرد عليهم أربعة أخماس الغنائم ، ويستبقى الخمس على الأصل لله والرسول. ولمن يعولهم الرسول والجماعة الإسلامية من ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل. عاد ليرد الأخماس الأربعة على القاتلين وقد استقر فى نفوسهم أنهم لايملكونها ابتداء ، ولايملكونها بحق الغزو – فهم إنما يغزون لله ولإعلاء كلمة الله – إنما هى من فضل الله عليهم يمنحهم إياه ؛ كما يمنحهم النصر من عنده حين يطيعون أمره ، ويفون بعهده .

ونظرا للارتباط بين الأمر الأول برد الغنائم كلها لله ، والأمر الثانى باستبقاء الخمس ومنح الأخماس الأربعة للمقاتلين ، فإنه يردهم فى هذا الأمر الثانى إلى ذلك الأمر الأول « إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان» فالمبدأ الأول قائم ،والغنائم كلها لله وللرسول أصلا ؛ وتوزيع أخماسها الأربعة على القاتلة إنما هو من فضل الله ، لا بحق الغزو والفتح .

« إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان » ..

كانت غزوة بدر ، التى تمت بتدبير الله وتوجيهه من البداية إلى النهاية ، فرقانا . فرقانا بين الحق والباطل – كما يقول رجال التفسير إجمالا – وفرقانا بمعنى أشمل وأوسع وأدق ..

كانت فرقانا بين الحق والباطل ، لا فى ظاهر الحياة ، ولكن فى أعماق الضمير . فرقانا بين الوحدانية المجردة المطلقة بكل شعبها فى الضمير والسلوك وعلاقات الأفراد والجماعات؛ وبين الشرك فى كل صوره بما فى ذلك عبودية الضمير لغير الله من الأشخاص والقيم والأوضاع والأحكام . فارتفعت الهامات لا تنحنى لغير الله ؛ وتساوت الرؤوس لا تخضع لغير الله ، وخفت القيم كلها فى الميزان إلا قيمة واحدة : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .. وذلك مفرق الطريق فى تاريخ الحرية والكرامة والاستعلاء .

وكانت فرقانا بين عهدين فى تاريخ الدعوة الإسلامية . عهد الصبر والانتظار والتجمع ، وعهد القوة والاندفاع والمبادأة . والإسلام بوصفه تصورا جديدا للحياة ، ونظاما جديداً للمجتمع ، وشكلا جديدا للدولة ،واتجاها جديدا للبشرية .. بوصفه هذا لم يكن له بد من القوة والاندفاع والمبادأة ، لأنه لم يكن يستطيع أن يقف كامنا منتظرا سلبيا، لم يكن يستطيع أن يظل عقيدة مجردة فى نفوس أصحابه ، ولم يكن لهم بد أن يندفعوا إلى تحقيق النظام الجديد والدولة الجديدة والاتجاه الجديد فى واقع الحياة ؟ وأن يزيلوا من طريقها العوائق المادية التى تكبتها وتحول بينها وبين التطبيق العملى فى حياة البشر . وهى لهذا التطبيق جاءت من عند الله . وإلا فما هم بمسلمين .

وكانت فرقانا بين عهدين فى تاريخ البشرية . فالبشرية بمجموعها قبل الإسلام هى غير البشرية بمجموعها بعد الإسلام .. هذا التصور الجديد للحياة .. هذا النظام الجديد للمجتمع ، هذا الشكل الجديد للدولة . . هذا كله لم يعد ملكا للمسلمين وحدهم منذ غزوة بدر ، بل صار ــ شيئا فشيئا ــ ملكا للبشرية كلها ، تأثرت به سواء فى الوطن الإسلامى أم فى خارجه . سواء بصداقة الإسلام أم بمعاداته . والصليبيون الذين زحفوا من الغرب ليحاربوا الإسلام ويقضوا عليه فى ربوعه قد تأثروا بتقاليد المجتمع الإسلامى الذى جاءوا ليحطموه ، وعادوا إلى بلادهم ليحطموا النظام الإقطاعى الذى كان سائدا فيها ، بعد ما شاهدوا نظام المجتمع الإسلامى ! والتتار الذين زحفوا من الشرق ليحاربوا الإسلام ويقضوا عليه قد تأثروا بالعقيدة الإسلامية فى النهاية ، وحملوها لينشروها فى رقعة من الأرض جديدة . . وعلى أية حال فالتاريخ البشرى كله ــ منذ وقعة بدر ــ متأثر بهذا الفرقان فى أرض الإسلام أو فى الأرض التى تناهض الإسلام العداء على السواء .

وكانت فرقانا بين تصورين لعوامل النصر وعوامل الهزيمة . فجرت وكل عوامل النصر الظاهرية فى صف المشركين ، وكل عوامل الهزيمة الظاهرية فى صف الفئة المؤمنة ، حتى لقال الذين فى قلوبهم مرض : « غر هؤلاء دينهم » وقد أراد الله أن تجرى المعركة على هذا النحو ــ وهى المعركة الأولى بين الكثرة المشركة والقلة المؤمنين ــ لتكون فرقانا بين تصورين وتقديرين لأسباب النصر والهزيمة . ولتنتصر العقيدة القوية على الكثرة العددية وعلى الزاد والعتاد ، فيتبين الناس أن النصر للعقيدة القوية الصالحة ، لا للسلاح ولا للعتاد ؛ وأن أصحاب العقيدة عليهم أن يجاهدوا ويخوضوا غمار المعركة غير منتظرين حتى تتساوى القوى المادية

الظاهرية . لأنهم يملكون قوة أخرى لها ثقلها فى الميزان . وأن هذا القول ليس كلاما يقال ، إنما هو واقع متحقق للعيان . .

وهكذا كان يوم الفرقان يوم التقى الجمعان . . « والله على كل شىء قدير » . . وفى يوم الفرقان مثل من قدرته على كل شىء . مثل لا يجادل فيه مجادل ، ولا يمارى فيه ممار .

***

وهنا يعود السياق إلى المعركة فيعيد عرضها ؛ ويبدأ فيرسم موقف الفريقين فيها ؛ ويكشف عن تدبير الله فى إدارتها ، وعن غاية هذا التدبير التى حققها :

« إذ أنتم بالعدوة الدنيا ، وهم بالعدوة القصوى ، والركب أسفل منكم ، ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد ؛ ولكن ليقضى الله أمرا كان مفعولا . ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حى عن بينة ، وإن الله لسميع عليم . إذ يريكهم الله فى منامك قليلا ، ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ، ولكن الله سلم ، إنه عليم بذات الصدور . وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ، ويقللكم فى أعينهم ، ليقضى الله أمرا كان مفعولا ، وإلى الله ترجع الأمور» .

ذلك أن المسلمين حين خرجوا من المدينة نزلوا بضفة الوادى القريبة من المدينة ؛ ونزل جيش المشركين بقيادة أبى جهل على الضفة الأخرى البعيدة من المدينة ، وبين الفريقين ربوة ، أما القافلة فقد مال بها أبو سفيان إلى سيف البحر أسفل من الجيش .

ولم يكن كلا الجيشين يعلم بموقع صاحبه . ولكن الله جمعهما على جانبى الربوة ، حتى لو أن بينهما موعدا على اللقاء ما اجتمعا بمثل هذه الدقة ! « ولكن ليقضى الله أمرا كان مفعولا » وينفذ مشيئة وراءها غاية . . « ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حىّ عن بينة » . . فالموقعة ـ كما وقعت ـ تحمل بينة لا تجحد ، وتدل على تدبير وراء تدبير البشر ؛ وتثبت أن لهذا الدين ربا يؤيد أصحابه ؛ وأنه لو كان الأمر إلى القوة المادية الظاهرة ما هزم المشركون ولا انتصرت الحفنة المؤمنة هـذا الانتصار العظيم . فمن آمن بعد ذلك فإيمانه عن بينة ، ومن كفر فإنما يكفر والبينة بين يديه حاضرة .

وإنما يعبر القرآن عن الإيمان بالحياة ، كما يعبر عن الكفر بالموت . يجرى فى هـذا على

نظرته لحقيقة الحياة وحقيقة الموت . هذه النظرة التى وقفنا عندها فى تفسير قوله تعالى : « أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ؟ » (١) . فالكفر موت بكل معانى الموت ، والإيمان حياة بكل معانى الحياة .

ولقد كان من تدبير الله فى المعركة أن يرى الكافرين للرسول — صلى الله عليه وسلم — فى منامه قليلا ؛ فينبىء أصحابه برؤياه ، فيستبشروا ويتشجعوا على خوض المعركة : « إذ يريكهم الله فى منامك قليلا ، ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ، ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور » .

والرؤيا صادقة فى مدلولها الحقيقى ؛ فقد رآهم الرسول — صلى الله عليه وسلم — قليلا فى عددهم . وهم كثير ؛ ولكنهم قليل فى قوتهم ، قليل فى أثرهم ، قليل فى قيمتهم . ولكن إرادة الله فى تدبير المعركة أرتهم للرسول — صلى الله عليه وسلم — قليلا فى عددهم ، لإدخال الطمأنينة على قلوب المسلمين ، والله عليم بسرائرهم ، مطلع على قلتهم وما تحدثه فى نفوسهم من أثر . عالم أنهم لو عرفوا كثرة عددهم لضعفوا عن مواجهته ، ولتنازعوا على لقائه . ولكن إرادة الله الغالبة دبرت ذلك التدبير .

وحينما التقى الجمعان تكررت الرؤيا النبوية الصادقة فى صورة رؤية عيانية من الجانبين : « وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم » وفى هذا إغراء للفريقين على خوض المعركة « ليقضى الله أمرا كان مفعولا » ولتنفذ مشيئة لابد من نفاذها « وإلى الله ترجع الأمور » فيسيرها ويدبرها ، ولا يملك سواه تصريفا لها ولا تدبيرا .

***

وإذ أن الأمر كذلك ، فالتدبير تدبير الله ، والنصر بيد الله ، والكثرة العددية ليست هى التى تكفل النصر ، والعدة المادية ليست هى التى تقرر مصير المعركة . . فليثبت الذين آمنوا إذن حين يلقون الأعداء .

---

(١) سورة « الأنعام » الجزء الثامن من الظلال .

« يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون . وأطيعوا الله ورسوله ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين ، ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ، ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط » . .

فهذه عوامل النصر الحقيقية : الثبات عند لقاء العدو . والاتصال بالله بالذكر الكثير . والطاعة لله والرسول . واطراح النزاع والشقاق . والصبر على تكاليف المعركة . وعدم البطر والبغى والعدوان .

فأما الثبات فهو بدء الطريق إلى النصر . فأثبت الفريقين أغلبهما . وما يدرى المؤمنين أن عدوهم يعانى أشد مما يعانون ، وأنهم لو ثبتوا اللحظة فسينهار عدوهم وينخذل ؟ وما الذى يزلزل أقدام المؤمنين ، وهم واثقون من إحدى الحسنيين : الشهادة أو النصر ؟ . . والثبات صفة نفسية قبل أن تكون حالة جسدية . وهى لازمة للمؤمن فى ميدان القتال وفى كل ميدان تتقابل فيه قوة إيمانه وأية قوة من قوى الأرض ؛ وفى كل مجال ينازل فيه خصما . وهو الثبات على العقيدة مهما فتن ، وعلى الطريقة مهما لاقى ، وعلى الكيد مهما يدبر الكائدون .

وأما ذكر الله كثيرا عند لقاء الأعداء ، فهو الاتصال بالقوة الكبرى ، والاستعانة بالله ذى الجبروت ، والثقة بالله الذى ينصر الحق ، واستحضار حقيقة المعركة وأنها معركة لإعلاء كلمة الله ، لا للسيطرة ولا للجاه ، ولا للمغانم ، ولا للشهرة ، ولا للشهوة أو النزوة .

وأما طاعة الله ورسوله ، فليدخل المؤمنون المعركة وقد أدوا فرائضهم ، وقدموا واجبهم ، وأسلموا أمرهم لله ورسوله ، ثقة منهم بحكمة تدبيره ، وبصدق رسوله .

ومن طاعة الله والرسول ، ينتفى النزاع والشقاق « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » والفشل الضعف ، وذهاب الريح ضياع الشوكة ؛ وما من جيش يدب فيه النزاع ، ثم تبقى له قوة على الصراع .

فأما الصبر فهو الصفة التى لابد منها لخوض أية معركة . حربية كانت أم سلمية . « واصبروا إن الله مع الصابرين » ومن كان الله معه كان النصر له .

وتبقى الصفة الأخيرة : « ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ، ويصدون عن سبيل الله . والله بما يعملون محيط » . . تبقى هذه الصفة التى تحمى المؤمن أن يقاتل بغيا وعدوانا . وأن يخرج متبطرا طاغيا يتعاجب بقوته ، ويستخدم نعمة القوة التى أعطاها الله له فى غير ما أرادها الله . وما أراد الله بالجهاد إلا رفع البغى والعدوان ؛ وإقرار العدل والسلام ؛ وضمانة حرية الاعتقاد وحرية العبادة ، وحرمة الفرد وحرمة الجماعة . والقوة نعمة من نعم الله ، فالذى يبغى بهذه القوة ويتجبر ، فإنما يتبطر ولا يشكر . « والله بما يعملون محيط » فلا يفوته منهم شىء ، ولا يعجزه من قوتهم شىء لأنه محيط بهم وبما يعملون .

ذلك كان شأن قريش حين خرجت لإنقاذ القافلة ؛ فلما نجت بقيادة أبى سفيان بعث إلى قريش قال : إن الله قد نجى عيركم وأموالكم ورجالكم فارجعوا ، فقال أبو جهل : « والله لا نرجع حتى نأتى بدرا — وكانت بدر سوقا من أسواق العرب — فنقيم بها ثلاثا فنطعم الطعام ، وننحر بها الجزر ، ونسقى بها الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا ، فلا يزالون يهابوننا أبدا » .. وهكذا خرج المشركون بطرا ورئاء الناس فكانت بدر قاصمة الظهر لهم . وواقعة النصر للأمة المؤمنة . . وهكذا تكون نهاية كل قوة يبطر أهلها ، وتأخذهم الخيلاء بها ، وينفقونها فى الصد عن سبيل الله .

* * *

ويمضى السياق يصور وسوسة الشيطان لحزب الباطل ؛ وإغراءهم بالمضى فى البغى والعدوان ؛ حتى يوردهم موارد التلف ، ثم يتخلى عنهم ، ويدعهم لمصيرهم البائس ، ساخراً منهم فى ساعة العسرة ، مستهزئاً بهم فى لحظة الهلاك .

وعلى طريقة القرآن فى إحياء المعانى وإلباسها ثوب الواقع الشاخص . . يرسم مشهداً للشيطان يزين لأتباعه أعمالهم ، ثم يتخلى عنهم هارباً . ويرسم فى هذا المشهد صورة مبدعة « لنفسية » الشيطان وطريقته فى الإغواء :

« وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم . وقال : لاغالب لكم اليوم من الناس ، وإنى جار لكم . فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه، وقال : إنى برىء منكم ، إنى أرى ما لاترون ، إنى أخاف الله ، والله شديد العقاب » .

وهكذا يرتسم مشهد حى شاخص ، ويعرض ساحة مجسمة مرئية ، يقف فيها الشيطان خطيبا يبث الحماسة فى حلفائه ، ويحرضهم على المضى فيما هم فيه مزينا لهم إياه ، مشجعا لهم على خوض المعركة ،واعدا إياهم بالعون والمشاركة .. حتى إذا جد الجد ، وجاء الشد « نكص على عقبيه » تاركا لهم الميدان . وياليته يتركهم معتذرا ، إنما يتركهم ساخرا : « إنى أرى ما لا ترون » ولى غير طريقكم طريق! «إنى أخاف الله . والله شديد العقاب» فياللشيطنة وياللشيطان! وياللخزى والسخرية بالكفر والطغيان !

إنه مشهد حى ، يصور حالة الكفار يوم بدر ، وكل حالة مماثلة يوحى فيها الشيطان ، ثم يتوارى عند وقوع المحذور ..

ذلك فى الوقت الذى كان المنافقون ومرضى القلوب ، ينظرون إلى قلة المؤمنين وكثرة المشركين ، فيهزأون بالمسلمين ويتهمونهم بالغرور :

« إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض : غر هؤلاء دينهم . ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم » ..

والمنافقون والذين فى قلوبهم مرض ، لا يدركون حقيقة أسباب النصر وأسباب الهزيمة ؛ وهم يرون ظواهر الأمور ، دون أن تهديهم بصيرة إلى بواطنها ، وهم لا يدركون حقيقة القوة الكامنة فى العقيدة . وفى العقيدة الإسلامية على وجه خاص . وهى قوة الاعتقاد الواثق ،وقوة الصلاحية لتنمية الحياة وترقيتها ، وقوة الفطرة التى تقوم عليها العقيدة .. وكلها قوى محجوبة عن ذوى القلوب المريضة . فلا جرم يظنون المسلمين يومئذ مخدوعين فى موقفهم ، مغرورين بدينهم، واردين موارد التهلكة بأنفسهم « ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم » له القوة يمنحها للمتوكلين عليه ، وله الحكمة يدبر بها الأمر ، ويضع الحق فى نصابه . وهكذا كان . وهكذا يكون ،حيثما التقت قوة الإيمان المطمئنة بقوة الطغيان المتبجحة.فى كل زمان وفى كل مكان .

* * *

ومشهد آخر . مشهد الـكفار فى لحظة الموت ، تتوفاهم الملائـكة :

« ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائـكة ، يضربون وجوههم وأدبارهم ، وذوقوا عذاب الحريق . ذلك بما قدمت أيديكم ، وأن الله ليس بظلام للعبيد » ..

فى هذه الصورة المنكرة يسلم الـكفار أرواحهم ، أو تستل منهم أرواحهم . فى هذه الصورة المنكرة ، صورة الإهانة والتبكيت والتعذيب . يعرضها السياق فى هـذه الصورة العنيفة على طريقة القرآن فى التصوير : « يضربون وجوههم وأدبارهم » .. ثم يتحول السياق من صيغة الخبر إلى صيغة الخطاب : «وذوقوا عذاب الحريق» ليرد المشهد حاضرا كأنه اللحظة مشهود ؛ وكأنما جهنم أمامهم وهم يدفعون إليها دفعا مع التأنيب والتهديد : « ذلك بما قدمت أيديكم » تلاقون جزاءه العادل : « وأن الله ليس بظلام للعبيد » ..

تلك سنة الله الماضية ، التى لا تتخلف ولا تتبدل . وذلك هو المصير المحتوم لـكل من يشرك بالله ويكفر :

« كدأب آل فرعون والذين من قبلهم ، كفروا بآيات الله ، فأخذهم الله بذنوبهم ، إن الله قوى شديد العقاب » .

فهى سنة واحدة تمضى ، وهو مثل واحد يتكرر . وما أصاب المشركين فى بدر ، أصاب آل فرعون والذين من قبلهم . «كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم» لم يعجزوه ولم يتخلف عنهم عقابه : « إن الله قوى شديد العقاب » .

ولقد آتاهم الله من نعمته ، ورزقهم من فضله ، فلم يغير ما بهم إلا حين كفروا ، وإلا حين تجبروا . فمضت فيهم سنته الجارية وقضاؤه النافذ :

« ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وأن الله سميع عليم ، كدأب آل فرعون والذين من قبلهم ، كذبوا بآيات ربهم ، فأهلـكناهم بذنوبهم ، وأغرقنا آل فرعون ، وكل كانوا ظالمين » .

ولا بد أن نقف قليلا عند هذا النص : « ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .. إنه من جانب يقرر عدل الله ورحمته بالعباد ؛ فلا يسلبهم نعمة

وهبها إياهم إلا بعد أن يغيروا نواياهم ويبدلوا سلوكهم ، ويستحقوا أن يغير الله ما بهم ..
ومن الجانب الآخر يكرم هذا المخلوق الإنسانى أكبر تكريم ، حتى ليجعل مشيئة الله فى الإنسان تتم وتنفذ عن طريق هـذا الإنسان ذاته . ويجعل محور التغير فى حياة الناس هو قلوبهم ونواياهم ، وسلوكهم وأعمالهم . وإنه لتكريم عظيم لهذا المخلوق . وإلا فما هو هذا الـكائن حتى يعلق الخالق نفاذ مشيئته فيه على نشاطه الذى يبديه أو يخفيـه ؟ وهو فى الوقت ذاته تبعة عظيمة ، ففى يد هـذا الـكائن مصـيره ، وهو يملك أن يستبقى نعمة الله عليه إذا هو عرفه واتجه إليه ؛ كما يملك زوال هـذه النعمة إذا انحرفت نواياه فانحرفت خطاه .

تلك هى سنة الله الجارية فى عباده ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ..

« إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ * فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ * وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ، إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ * وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ، تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ، وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ؛ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ * وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ، هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ، إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ، إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ، وَإِنْ

يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ * الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ ، وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ، فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِئَتَيْنِ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ .

« مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ، تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى : إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؛ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ؛ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا ؛ وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ ، وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » .

هذا الدرس الأخير من سورة الأنفال يتضمن الكثير من مبادىء دستور الحرب والسلم في الإسلام؛ ورأيه في الجهاد والإنفاق؛ ويكشف عن نظرة الإسلام إلى العهود والمواثيق؛ ونظرته إلى علاقات الدم والجنس والأرض وعلاقات العقيدة.

ومنه يتبين أن الجهاد فريضة لا تنتظر تكافؤ القوى الظاهرة بين المؤمنين وأعدائهم؛ فحسب المؤمنين أن يعدوا مااستطاعوا، وأن يثقوا بالله، وأن يثبتوا في المعركة.. والبقية على الله. ذلك أنهم يملكون قوة أخرى مضمرة غير القوى المادية الظاهرة، توضع في الميزان، ويكون لها الغلب والرجحان.

كذلك يتبين أن السلم هو القاعدة في الإسلام، أما الحرب فطارئة لدفع الباطل، وإقرار الحق؛ ومن ثم يدعو إلى السلم دعوته إلى الجهاد، ويحافظ على العهد ماوفى به المعاهدون [1] ويؤمن المخالفين للإسلام في العقيدة من كل اعتداء غادر؛ ويحصر الحرب في أضيق نطاق تقضى به ضرورة تأمين السلم والحق والعدل. ويعد الناقضين للعهود من عالم الحيوان لا من عالم الإنسان.

* * *

« إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون. الذين عاهدت منهم، ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون »..

ولفظ الدواب وإن كان يشمل كل مادب على الأرض فيشمل الأناسي فيما يشمل، إلا أنه ـ كما أسلفنا ـ يلقي ظلا خاصا حين يطلق على الآدميين. ظل البهيمة التي تجردهم من آدميتهم، وتسلبهم خصائص الإنسان المميزة.

وهؤلاء الذين كفروا ولجوا في الكفر « فهم لا يؤمنون » فتجردوا بذلك من البصيرة، ومن الصلة بالله التي ترفع من روح الإنسان فتتطلع إلى آفاق أعلى من آفاق الأرض. هؤلاء الذين ينقضون كل عهد أبرموه؛ فلا يأمن جارهم بوائقهم، ولا يطمئن إلى اتفاق معهم،

(١) فيما عدا حالة استثنائية واحدة هي حالة الجزيرة العربية، التي سيجيء في سورة براءة نبذ عهود المشركين فيها جميعا وتخليصها من الشرك كافة.

فتجردوا بذلك من خصيصة إنسانية أخرى ـ خصيصة التقيد بالعهد ـ وانطلقوا من كل قيد ، كما ينطلق الحيوان من كل قيد ، فتستبد به غريزته ، وتصرفه نزواته ؛ وخلت قلوبهم من الحساسية ومن مراقبة الله « وهم لايتقون » .. هؤلاء هم شر « الدواب » عند الله . وجزاؤهم هو حرمانهم الأمن كما حرموا غيرهم الأمن ؛ وجزاؤهم هو تخويفهم وتشريدهم ، والضرب على أيديهم بشدة لا تفزعهم وحدهم ، بل تفزع من يتسامع بما حل بهم ممن وراءهم من الأقوام :

« فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون » ..

وإنه لتعبير عجيب ، يرسم صورة للرعب المفزع ، الذى يكفى السماع به للشرود والهرب ، فما بال من يحل به ويشاهده؟ فهى الضربة المروعة يأمر الله تعالى رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يأخذ بها هؤلاء الذين مردوا على نقض العهد ، وتحللوا من كلمة الشرف ، وانطلقوا من قيود الإنسان فارتدوا إلى عالم البهيمة . ليؤمن البشرية منهم ، ويرد إلى العهود قيمتها ، وإلى المواثيق حرمتها .

هذه البهيمية التى انتكس إليها المشركون فى الجاهلية ، قد انتكست إليها البشرية «المتحضرة» اليوم ، فباتت تعتبر المعاهدات قصاصات من الورق ، لاتستمسك بها إلا ريثما تجد الفرصة لتمزيقها ؟ وهى وقعتها حين وقعتها راضية ، غير مكرهة ولا مجبرة. فما أقرب حضارة المادة من عهود الجاهلية الأولى ؟ وما أقرب « المتحضرين » الذين ينقضون عهودهم فى يسر إلى عالم البهيمة !

فأما الإسلام فهو يعاهد ليصون عهده ، فإذا خاف الخيانة من غيره نبذ العهد جهرة وعلانية ، ولم يغدر ولم يخن ، ولم يخدع ولم يغش ؛ وصارح الآخرين بأنه نقض يده من عهدهم ، فليس بينه وبينهم أمان :

« وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين » ..

وبذلك يرتفع الإسلام بالبشرية إلى آفاق من الشرف والاستقامة من ناحية ، وإلى آفاق من الأمن والطمأنينة من ناحية . إنه لا يبيت الآخرين بالهجوم الغادر الفاجر وهم آمنون ، مطمئنون إلى عهود ومواثيق لم تنقض ولم تنبذ ؛ ولا يروع المسالمين الذين لم يأخذوا حذرهم ، وقد يكونون أبرياء لادخل لهم فيما بين الفريقين من نزاع .

فماذا لو ثابت البشرية إلى نهج الإسلام النظيف الشريف العفيف ؟ ماذا لو التزمت البشرية

تلك الحدود التى سنها لها الإسلام قبل نيف وثلاثمئة وألف عام ؟ ماذا لو ارتفعت البشرية إلى هذا الأفق اللائق بنى الإنسان ، المميز لهم عن عالم الوحش والبهيمة ؟

إن بعضهم قد يعتذر لحضارة المادة المجردة من الآدمية ، بأن وسائل التدمير الحديثة الهائلة تجعل القيمة الأولى فى الحرب لعنصر المفاجأة . ولكن هذه الوسائل الجهنمية هى ذاتها التى تحتم إعلان الحرب الصريحة ، ونبذ العهود قبل إعلان الحرب الفظيعة ، ليبعد المسالمون الأبرياء عن هول المجزرة ، فلا يصلاها إلا المحاربون. وتبقى فرصة الخدعة فى الحرب ـ لا فى السلم ـ فالخدعة لا تصبح مباحة إلا بعد أن يقف الخصمان على سواء ، ويعلم كلاهما أنهما أعداء لا أصدقاء .

فأما بعد نبذ العهد فالحرب خدعة . لأن كل خصم قد أخذ حذره ، فإذا جازت عليه حيلة خصمه فهو غير مغدور به ، وكل وسائل الخدعة حينئذ مباحة لأنها ليست غادرة .

إن الإسلام يريد للبشرية أن ترتفع ، ويريد للبشرية أن تعف ، ويريد للبشرية أن تخلص من الوحشية والبهيمية، فلا يبيح الغدر فى سبيل الفوز ، وهو يكافح لأسمى الغايات ، وأشرف المقاصد ؛ ولا يسمح للغاية الشريفة أن تستخدم الوسيلة الخسيسة . فأما حضارة المادة فتدوس هذا كله فى سبيل الغلب. وهى إنما تقاتل لأخس الأطماع ، وأحط الغايات . فالوسيلة من الغاية والغاية من الوسيلة !

إن الإسلام يكره الخائنين الذين ينقضون العهود ؛ فلا يحب للمسلمين أن يخونوا أمانة العهد، فى سبيل غاية مهما تكن شريفة . فالنفس الإنسانية وحدة لا تتجزأ . ومتى استحلت لنفسها وسيلة خسيسة ، فلا يمكن أن تظل محافظة على الغاية الشريفة . وليس بالمسلم من يبرر الوسيلة بالغاية . فهذا المبدأ غريب على الحس الإسلامى والحساسية الإسلامية ، لأنه لا انفصال فى عالم النفس بين الوسائل والغايات . . إن الشط المرع لا يغرى المسلم بخوض بركة من الوحل . فإن هذا الشط لا بد أن تلوثه الأقدام الملوثة فى النهاية !

وفى مقابل هذه النصاعة وهذه النظافة يعد الله المسلمين بالنصر ، ويهون عليهم أمر الكفار :

« ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا . إنهم لا يعجزون » ..

فتبييتهم الغدر والخيانة ، لن يمنحهم فرصة السبق ، لأن الله عندئذ لن يترك المسلمين وحدهم ، وهم على هداه يسيرون . والكفار أضعف من أن يعجزوا الله حين يطلبهم ، وأضعف من أن يعجزوا المسلمين والله ناصرهم .

فليطمئن أصحاب الوسائل النظيفة ـ متى أخلصوا النية فيها لله ـ من أن يسبقهم أصحاب الوسائل الخسيسة . فإنما هم منصورون بالله ، الذى يحققون فى الأرض سنته ، ويعلون فى الناس كلمته ، ويعلمون الناس بسلوكهم الواقعى مبادىء الحياة الشريفة النظيفة التى يريدها الله للناس ، ليرفعهم من درك البهائم والدواب ، إلى أفق البشرية الكريم الوضىء .

ولكن الإسلام يتخذ للنصر أسبابه الواقعية التى تدخل فى طوق الفئة المؤمنة ؛ فهو لا يعلق أبصار البشرية بتلك الآفاق العالية ، إلا وقد أمن لها الأرض الصلبة التى تطمئن إليها أقدامها ؛ وهيأ لها الأسباب العملية التى تعرفها طبيعتها ، وتؤيدها تجاربها :

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون » .

فالاستعداد ـ بما فى الطوق ـ فريضة تصاحب فريضة الجهاد ؛ والنص يأمر بإعداد القوة على اختلاف صنوفها وألوانها وأسبابها ، ويخص « رباط الخيل » لأنه الأداة التى كانت بارزة عند من يخاطبهم بهذا القرآن أول مرة ؛ ومع ذلك فما يزال رباط الخيل ضروريا فى كثير من المواقع التى يعسر الوصول إليها بوسائل الحرب الحديثة . والمهم هو عموم النص واتجاهه إلى إعداد كل قوة مستطاعة . ومنها قوة العقيدة والتربية والخلق والتنظيم ، فالوسائل المادية وحدها ليست هى التى تفصل فى المعارك ، والأعصاب أحيانا تكون هى القوة الفاصلة . وما يثبت الأعصاب ويقويها كالعقيدة التى تربط القلوب بالله ، وتصل قوة المجاهدين بالقوة الكبرى التى لا تغلب ، وتمد الأرواح بالينبوع الدافق الذى لا ينضب ..

ويحسن أن نعرف حدود التكليف بإعداد القوة . فالنص يقول : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » . وإذن فليس المقصود إعداد قوة مماثلة لقوة الأعداء ؛ وفريضة الجهاد لا تنتظر حتى يتم إعداد قوة مماثلة .. إن ذلك أمر يطول ، وقد لا يجىء أبدا . ولو انتظر المسلمون بغزوة بدر حتى تتكافأ قوتهم وقوة خصومهم ما قام الإسلام . إنما هى الحفنة المؤمنة استعدت ـ بقدر ما استطاعت ـ ثم خاضت المعركة فكان فيها الفرقان .

كذلك يشير النص إلى الغرض الأول من إعداد القوة . وهو إلقاء الرهبة فى قلوب أعداء الله وأعداء المسلمين . المعلومين منهم للمؤمنين والمجهولين . وكم للإسلام من أعداء لا يعرفهم المسلمون ، ولا يظهرون إلا فى ساعات ضعفه وحرجه وضيقته . هؤلاء ترهبهم قوة الإسلام ولو لم تمتد إليهم ، والمسلمون مكلفون أن يكونوا أقوياء مرهوبين فى الأرض ، ليقيموا شريعة الله ، ويعلوا كلمته . وكلمة الله هى الحق والعدل والحرية للجميع .

« وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم ، وأنتم لا تظلمون » . . من شىء . . من دم أو جهد أو مال أو وقت . « فى سبيل الله » لا فى سبيل المجد والجاه ، ولا فى سبيل الظهور والاستعلاء ، ولا فى سبيل الحمية والعصبية « يوف إليكم وأنتم لا تظلمون » . .

وهكذا يجرد الإسلام الجهاد من كل غاية أرضية ، ومن كل دافع شخصى ، ليتمحض خالصا لله ، لتحقيق كلمة الله ، ابتغاء رضوان الله .

ومن ثم ينفى الإسلام من حسابه ــ منذ الوهلة الأولى ــ كل حرب تقوم للاستغلال وفتح الأسواق اوكل حرب تقوم على أمجاد الأشخاص والدولات . وكل حرب تقوم للقهر والإذلال. وكل حرب تهدف إلى تسويد طبقة على طبقة أو جنس على جنس أو وطن على وطن. ويستبقى نوعا واحدا من الحرب: هى الحرب الفاضلة لإعلاء كلمة الله . وكلمة الله لا تحابى جنسا ولا وطنا ، ولا شعبا ولا طبقة ، ولا أسرة ولا شخصا. إنما تحكم فى البشر مقياسا واحدا ، لا يتبدل : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . وتريد للبشر خيرا واحدا لا يتعدد : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » . .

تلك صفحة فى كتاب الإسلام . صفحة الجهاد . تقابلها الصفحة الأخرى . صفحة السلم لمن يجنح إلى السلم ويختار المهادنة :

« وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله . إنه هو السميع العليم » . .

والتعبير عن الميل إلى السلم بالجنوح تعبير لطيف يلقى ظل الدعة الرقيق . فهى حركة جناح يميل إلى جانب السلم ، ويرخى ريشه فى وداعة واطمئنان ، فإذا الجو من حوله طمأنينة وسلام .

فهؤلاء الذين يشهرون على الإسلام حربا شعواء . هؤلاء الذين يتربصون بالمؤمنين الدوائر . هؤلاء الذين آذوا المسلمين أشد الإيذاء . هؤلاء إن جنحوا للسلم فاجنح لها . إنه دين السلام الذى لا يحارب إلا لرد البشرية إلى السلام القائم على العدل والحق والحرية والفضيلة والكرامة لكل بنى الإنسان .

« وإن جنحوا للسلم فاجنح لها » ولا تخف أن يخدعوك بهذا الجنوح ويبلغوا منك بالخداع ما لم يبلغوه بالقتال . ولا يمنعك خوفك من خداعهم أن تقبل منهم سلمهم ، فإن الله عندئذ سيحميك منهم كما حماك :

« وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله ، هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين ، وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم » . .

حسبك الله ، فهو يكفيك . وهو أيدك بنصره أول مرة ، وأيدك بالمؤمنين الذين صدقوا الإيمان ، وجعل لك منهم قوة موحدة بعد أن كانت قلوبهم شتى ، وعداواتهم جاهرة ، وبأسهم بينهم شديدا . « وألف بين قلوبهم » بذلك التعبير اللطيف . فإذا هى ألفة جميعة متعارفة على شدة ما كان بينها من نفار وشقاق ، وعلى استعصائها على التجميع والتأليف : « لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم » وهو تعبير عن الاستحالة مرتين : استحالة إنفاق ما فى الأرض جميعا لأن إنسانا ما لا يملك ما فى الأرض جميعا . ولو ملكه فتحقق المستحيل الأول لاستحال التأليف بين تلك القلوب ! « ولكن الله ألف بينهم » هكذا فى يسر وسهولة واختصار ، فإذا المستحيل واقع فى ومضة وفى جملة واحدة من أربع كلمات ! « إنه عزيز حكيم » . فهو عزيز قادر على تحقيق المستحيل فى عرف الناس ؛ وهو حكيم يحقق ذلك لما وراءه من حكمة تراد .

إن سمة هذه الأمة المسلمة ــ حين تدرك روحها حقيقة الإيمان وتخالطها بشاشته ــ هى الحب والألفة، ومودات القلوب التى تلين جاسيها ، وترقق حواشيها ، وتندى جفافها ، وتربط بينها برباط وثيق عميق رقيق ، فإذا نظرة العين ولمسة اليد ونطق الجارحة وخفقة الفؤاد . . ترانيم من التعارف والتعاطف والتجاوب والمناجاة .

والإسلام يهتف للبشرية بنداء الحب ، ويوقع على أوتار القلوب ألحانه العذاب . فتستجيب إليه حين تخالطها نداوة الإيمان .

يقول الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ: « إن من عباد الله لأناسا ماهم بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى . قالوا : يارسول الله تخبرنا من هم . قال : هم قوم تحابوا بروح الله بينهم ، على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ، والله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلى نور . لايخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس »(١)

ويقول : « إن المسلم إذا لقى أخاه المسلم ، فأخذ بيده تحاتت عنهما ذنوبهما كما تتحات الورق عن الشجرة اليابسة فى يوم ريح عاصف، وإلا غفر لهما ذنوبهما ، ولو كانت مثل زبد البحار »(٢) .

وتتوارد أحاديث الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ تترى فى هذا الباب، وتشهد أعماله بأصالة هذا العنصر فى رسالته عليه الصلاة والسلام .

***

هذه الأمة التى ألف الله بين قلوبها ، وجمعها على قلب رجل واحد ، بعد الفرقة والعداوة والشتات ، وحقق فيها معجزة وقوع المستحيل فى عرف الواقع والناس . . يوحى الله إلى رسوله أنها حسبه ففيها الكفاية لتحقيق رسالته ؛ ويأمره بأن يحرضها على القتال ، لتحقيق كلمته فى الأرض ، ولإزالة القوى الطاغية الباغية التى تقف فى الطريق :

« يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين . ياأيها النبى حرض المؤمنين على القتال، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين ، وإن يكن منكم مئة يغلبوا ألفا من الذين كفروا . بأنهم قوم لا يفقهون . الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا ، فإن يكن منكم مئة يغلبوا مئتين ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله ، والله مع الصابرين » . .

ويقف الفكر ليستعرض القوة التى لاراد لها ولا معقب عليها ــ قوة الله ــ ومنها قوة المؤمنين المتصلين بالله . وأمامها تلك القوة الضئيلة العاجزة الهزيلة ــ التى تتصدى لكتائب

---

(١) أخرجه أبوداود .
(٢) رواه الحافظ الطبرانى ــ بإسناده ــ عن سلمان الفارسى .

الإيمان ــ فإذا الفرق شاسع والبون بعيد . وإذا هى معركة مضمونة العاقبة معروفة النهاية ، لايشك فيها عقل ، ولا يرتاب فيها قلب . بل لامجال فيها للأخذ والرد : « يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين » . .

ومن ثم يأتى الأمر بتحريض المؤمنين على القتال ــ فى سبيل الله ــ وقد تهيأت كل نفس ، واستعد كل قلب ، وشحن كل عصب ، وتحفز كل إحساس : « يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال » . . حرضهم وهم لعدوهم كفء ، وإن قل عددهم وكثر أعداؤهم : «إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين، وإن يكن منكم مئة يغلبوا ألفا من الذين كفروا » . .
فأما تعليل هذا التفاوت ، فهو تعليل عجيب : « بأنهم قوم لا يفقهون » . فما صلة الفقه بالغلب فى ظاهر الأمر ؟ ولكنها صلة قوية وصلة حقيقية . إن الفئة المؤمنة إنما تمتاز بالبصيرة ، وتمتاز بالفقه ، وتمتاز بتفتح القلب للهدى ، وتفتح العقل للتدبر ، فأما القلوب المغلقة والبصائر المطموسة فهى كليلة عاجزة مهما تكن قوتها المادية متفوقة ظاهرة . إنها قوة معزولة عن النبع الخالد والأصل الكبير . .

وفهم المسلمون من هذه الآية أنه إن كان منهم واحد فإنه لايجوز له أن يفر من عشرة . . وتعاظمهم هـذا واشتد عليهم . فخفف الله عنهم ، وقال لهم : « الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا ، فإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا مئتين . . . »

فهى القوة المضاعفة حتى مع افتراض الضعف . قوة رجل لرجل ، وقوة القلب الذى يعمره الإيمان ، والذى يجاهد لله ، والذى يستشعر صلته بالقوة الكبرى ، والذى لايخشى أن يموت ، لأنها الشهادة فى سبيل الله ، ولأنها الحياة الحقة عند الله . « والله مع الصابرين » الذين يثبتون للشدة ، ويصبرون على المشقة ، ويثقون بالنصر حتى يتحقق وعد الله .

* * *

ومن التحريض على القتال إلى بيان حكم الأسرى ــ أسرى بدر ــ بمناسبة تصرف الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ والمسلمين فيهم :

« ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد

الآخرة ، والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم . فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا واتقوا الله ، إن الله غفور رحيم » .

روى الإمام أحمد ــ بأسناده ــ عن عمر رضى الله عنه ــ قال من حديث طويل عن يوم بدر: « ... فلما كان يومئذ التقوا ، فهزم الله المشركين ، فقتل منهم سبعون رجلا ، وأسر منهم سبعون رجلا ، واستشار رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أبا بكر وعمر وعليا ، فقال أبو بكر: يارسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان ، وإنى أرى أن تأخذ منهم الفدية ، فيكون ماأخذناه منهم قوة لنا على الكفار ، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضدا ، فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ « ماترى يا ابن الخطاب ؟ » قال : قلت والله ما أرى ما رأى أبو بكر ، ولكنى أرى أن تمكنى من فلان ــ قريب لعمر ــ فأضرب عنقه ، وتمكن عليا من عقيل [1] فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه ، حتى يعلم الله أن ليس فى قلوبنا هوادة للمشركين ، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم . . فهوى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت ؛ وأخذ منهم الفداء . فلما كان من الغد قال عمر : فغدوت إلى النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأبى بكر وهما يبكيان . فقلت : ما يبكيك أنت وصاحبك فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما . قال النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ « للذى عرض على أصحابك من أخذهم الفداء . لقد عرض على عذابكم أدنى من هذه الشجرة » ــ لشجرة قريبة من النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأنزل الله عز وجل : « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ــ إلى قوله ــ: فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا » فأحل لهم الغنائم » .

لقد كانت غزوة بدر هى المعركة الأولى بين المسلمين والمشركين . وكان المسلمون قلة والمشركون كثرة . وكان نقص عدد المحاربين من المشركين بالقتل أو بالأسر كسبا ضخما فى هذه الحالة لا يعدله مال . وكان هنالك معنى آخر يراد تقريره فى النفوس وتثبيته فى العقول . ذلك هو المعنى الكبير الذى أشار إليه عمر ــ رضى الله عنه ــ فى صرامة ونصاعة : « وحتى يعلم

---

(١) عقيل بن أبى طالب .

الله أن ليس فى قلوبنا هوادة للمشركين » لهذين السببين الكبيرين نحسب أن الله كره للمسلمين أن يفادوا أسارى بدر .

ولهذه الظروف يشير النص إلى الإثخان فى الأرض : « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض » أى حتى يقاتل طويلا ، ويقتل ويجرح من أعدائه المحاربين . ذلك حتى تقوى شوكة الدين ويستقر وجوده وتعلو كلمته.. ولا يؤذيه أن يقبل الفدية من الأسرى ويطلقهم سالمين .

ولذلك عرض القرآن بالمسلمين الذين قبلوا الفداء فى أسرى المعركة الأولى : « تريدون عرض الدنيا » فقبلتم المال وأطلقتم الأسارى « والله يريد الآخرة » ويوجهكم إليها ، لتكون هدفكم الوحيد ، فتعملوا لها وحدها ، بإعلاء كلمة الله وتثبيت دينه فى الأرض ، وإضعاف أعدائه الذين يصدون عن سبيله بتقليل عددهم بالأسر والتقتيل « والله عزيز حكيم » قدر لكم النصر وقدر لكم المغفرة ، ومن ثم عفا عنكم فيما مضيتم فيه فى أسرى بدر ، وأعفاكم من عذابه جزاء على السير فى هذا الطريق : « لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم » . ثم زادكم الله من فضله فأحل لكم الغنائم ، وكانت محرمة فى الديانات قبل الإسلام « فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا » ولكن مع استشعار التقوى ومع رقابة الله « واتقوا الله . إن الله غفور رحيم » يغفر للمتقين ، ويرحم المخطئين ما اتصلت قلوبهم بالله بهذا الوجدان الحساس ، الكفيل برد القلوب إلى الله ، واستقامتها على الطريق ..

ثم يلمس قلوب الأسرى لمسة تحيي فيها الرجاء ، وتطلق فيها الأمل ، وتشيع فيها النور ، وتعلقها بمستقبل خير من الماضى ، وبحياة أكرم مما كانوا فيه ، وبكسب يرجح ما فقدوا من مال وديار .. وبعد ذلك كله بالمغفرة والرحمة من الله :

« يأيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى : إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ، ويغفر لكم والله غفور رحيم » .

هذا الخير كله معلق بأن تصلح قلوبهم ، فيعلم الله أن فيها خيرا وأن فيها خصبا ، وأن فيها نداوة ،

وأن فيها استعدادا لحضانة البذرة الطيبة والغرسة الكريمة . بذرة الحق وغرسة الإيمان . (١)

ذلك أن الإسلام حين يستبقى الأسرى لديه ، فإنما يستبقيهم ليلمس فى قلوبهم مكامن الخير والرجاء والصلاح ؛ وليستردهم إلى الهدى الذى تنكبوه . لا ليستذلهم انتقاما ، ولا ليسخرهم استغلالا . فأما استرقاق الأسرى فقد كان معاملة بالمثل،لأن استرقاق الأسرى إذ ذاك كان نظاما عالميا . (٢) ومع ذلك فإن رأى الإمام أبى حنيفة أن لارق للأسرى على الإطلاق .

وفى الوقت الذى يفتح الله للأسارى نافذة الرجاء المشرق الرحيم يحذرهم خيانة الرسول — صلى الله عليه وسلم — كما خانوا الله من قبل فلاقوا هذا المصير :

«وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم ، والله عليم حكيم » ..

خانوا الله فأشركوا به ، وقد أخذ عليهم ميثاق الفطرة بالتوحيد . فإذا شاءوا خيانة رسوله وهم أسرى فى يديه ، فليذكروا عاقبة الخيانة الأولى ! والله عليم بسرائرهم ، حكيم فى إيقاع العقاب بهم «والله عليم حكيم » ..

* * *

(١) عن الزهرى عن جماعة سماهم قال: بعثت قريش إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى فداء أسراهم ففدى كل قوم أسيرهم بما رضوا. وقال العباس : يارسول الله قد كنت مسلما . فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — « الله أعلم بإسلامك ، فإن تكن كما تقول فإن الله يجزيك ؛ وأما ظاهرك فقد كان علينا ، فافتد نفسك وابنى أخيك نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وعقيل بن أبى طالب بن عبد الله ،وحليفك عتبة ابن عمرو أخى بنى الحارث بن فهر » قال : ماذاك عندى يارسول الله. قال: « فأين المال الذى دفنته أنت وأم الفضل ؟ قلت لها: إن أصبت فى سفرى هذا فهذا المال الذى دفنته لبنى الفضل وعبد الله وقثم » قال : والله يارسول الله إنى لأعلم أنك رسول الله . إن هذا لشيء ماعلمه أحد غيرى وغير أم الفضل ، فاحسب لى يارسول الله ما أصبتم منى — عشرين أوقية من مال كان معى — فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا . ذاك شيء أعطانا الله تعالى منك » ففدى نفسه وابنى أخويه وحليفه ، فأنزل الله عز وجل : « يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ، ويغفر لكم ، والله غفور رحيم » . قال العباس: فأعطانى الله مكان العشرين الأوقية فى الإسلام عشرين عبدا كلهم فى يده مال يضرب به ، مع ما أرجو من مغفرة الله عز وجل .

(٢) فصلنا ذلك فى الجزء الثانى من الظلال .

ثم تختم السورة ببيان طبيعة العلاقات بين المؤمنين والمشركين .. إنها ليست علاقات الدم ، ولا علاقات الأرض ، ولا علاقات الجنس. ليست هى القرابة، وليست هى الوطنية ، وليست هى القومية .. إنما هى علاقة العقيدة ، والعقيدة وحدها . فالذين آمنوا وهاجروا إلى المؤمنين متجردين من كل ما يمسكهم بأرضهم وديارهم وقومهم ، والذين آووهم ونصروهم واحتضنوا عقيدتهم . . أولئك بعضهم أولياء بعض . والذين آمنوا ولم يهاجروا ليس بينهم وبين المؤمنين ولاية ، لأنهم لم يتجردوا بعد للعقيدة. والذين كفروا بعضهم أولياء بعض .. وهذه هى الخطوط الرئيسية فى العلاقات والارتباطات :

« إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهـدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض . والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا . وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر ــ إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق ــ والله بما تعملون بصير . والذين كفروا بعضهم أولياء بعض ــ إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير . والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله ، والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا ، لهم مغفرة ورزق كريم . والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم ،وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله . إن الله بكل شىء عليم » ..

والولاية كانت فى أول الأمر ولاية توارث وتكافل فى الديات . فالأخوة التى عقدها الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ بين المهاجرين والأنصار قامت مقام الأخوة الحقيقية فى الميراث وغيره ، حتى انتهت الفترة الحرجة فى حياة المسلمين ، فعادت مسائل الإرث والدية إلى قرابة الدم ، وبقيت ولاية التكافل العام بين الجماعة الإسلامية كافة.

فأما الهجرة التى يشير إليها النص ويجعلها شرطا لتلك الولاية فهى الهجرة من دار الشرك إلى دار الإسلام . لمن استطاع الهجرة ولم يمنع منها . فأما الذين يملكون الهجرة ولا يهاجرون استمساكا بمصالح أو قرابات أو صلات مع المشركين ، فهؤلاء لا تجب على المسلمين ولايتهم ــ كما كان الشأن فى جماعة من الأعراب أسلموا ولم يهاجروا لمثل هذه الملابسات .

وأمثال هؤلاء يجب على المسلمين نصرهم إن استنصروا فى الدين على شرط أن لا يخل المسلمون فى هذه النصرة بعهد مضروب بينهم وبين قوم آخرين . وهى قمة فى الاحتفاظ بالعهود تتطلع إليها البشرية ولا تنالها حتى اللحظة الحاضرة .

لقد سبق الإسلام جميع الاتجاهات والتيارات التى تجمع الناس تحت راية عقيدة؛ وتجعل الرابطة الأولى بينهم هى العقيدة، وهى النظام القائم على هذه العقيدة . فليس الذى يربط بين الناس هو قرابة الدم فى الأسرة – إذا اختلفت العقيدة – وليست هى الأرض التى تضمهم – إذا اختلفت العقيدة – وليس هو الجنس الذى ينحدرون منه – إذا اختلفت العقيدة – وإنما هى عقدة القلوب المتصلة بعقيدة واحدة، وعقدة النظام المستمد من تلك العقيدة .

وبعد أربعة عشر قرنا من نزول القرآن تحاول البشرية أن تقيم تكتلاتها على أساس فكرة وعلى أساس نظام، بدلا من العنصريات التى ذاقت الأمرين من جرائها، وبدل القوميات التى عانت من ويلاتها . ولكن البشرية التى لم تهتد بالإسلام تقيم هذه التكتلات على أساس أفكار أرضية ونظم وضعية، فتفشل فى تصفية روح البشر وإعلائها، وتوجيهها إلى آفاق وضيئة، لا تصطدم فيها المصالح والطبقات والتيارات .

لقد حطم الإسلام كل الاعتبارات التى تقوم حاجزا بين بعض البشر وبعضه، ليقيم حاجزا واحدا فى مفرق الطريق .. فإما طريق إلى الله وإما طريق إلى الشيطان . فمن كانوا مع الله متجردين من كل اعتبار آخر فهم أولياء بعضهم لبعض، ومن كانوا مع الشيطان فهم أولياء بعضهم لبعض . ومن آمن بالله ولكنه لم يتجرد من الأواصر الأخرى التى تشده وتحتجزه فليس بينه وبين الجماعة الإسلامية ولاية . إنما هو مسلم ينصره المسلمون حين يستنصر بهم فى الدين – إلا على قوم بينهم وبين الجماعة الإسلامية عهد . فالإسلام يصون عهوده حتى ينبذها على سواء – ولكن المسلمين لا يحتملون تبعة ولايته، ما لم يهاجر إليهم ويتجرد من كل آصرة سوى آصرة العقيدة التى تجمعهم .

لقد كان الإسلام سابقا بنظامه، وسابقا باتجاهاته . وما يزال . وإن البشرية لتظلع فى الطريق لتتابع خطواته . ولكنها لا تبلغ لأنها لا تسير على النهج، ولا تبدأ من حيث بدأ، فلا ترتفع إلى حيث ارتفع .

سُورَةُ التَّوبَةِ مَدَنِيَّة
إلا الآيتين الأخيرتين فمكيتان
وآياتها ١٢٩ نزلت بعد المائدة

« بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ؛ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ ، وَأَنَّ اللهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ * وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ؛ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ ، وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا ، وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا ، فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ * فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ، وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ ، وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ؛ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ، ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ .

« كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ؟ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ * كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ؟ يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ ، وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ * اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ، إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ *

فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ، وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ، وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ ، وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ ، فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ، إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ .

« أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ ، وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ ، وَهُمْ بَدَأُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ؟ أَتَخْشَوْنَهُمْ ؟ فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ ، وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ، وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا ، وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ ، وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ؟ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ .

« مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ ، أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ، وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ * إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ ، فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ * أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ ؟ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ ، وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ؛ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * قُلْ : إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ

وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ ، وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا ، وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ، وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا ، أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ ، وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ ، فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ ، وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ .

« لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ، وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً ، وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ، ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ، وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ، فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ، وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » ..

سورة التوبة هي آخر سور القرآن [1] . وفيها القول الفصل فى علاقات الأمة المسلمة بالمشركين وبأهل الكتاب وبالمنافقين . وهذا هو موضوعها الذى تدور عليه .

لقد كانت بين المسلمين وبعض المشركين عهود ؛ ولم يكن المشركون يحافظون على عهودهم إلا ريثما تلوح لهم فرصة ، يحسبونها مواتية للكرة على المسلمين ؛ وكان المشركون ــ حتى بعد فتح مكة ــ يطوفون بالبيت عرايا على عادتهم فى الجاهلية ،ويصفقون ويصفرون ، مخلين بكرامة

(١) روى البخارى عن أبى الوليد عن شعبة عن أبى إسحاق قال : « سمعت البراء يقول : آخر آية نزلت: « يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة » وآخر سورة نزلت براءة » .. وهناك رواية أن آخر آية نزلت هى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا» ..

البيت العتيق ، محتمين بتلك العهود ، وكان وجود الشركين فى الجزيرة العربية — بعد غلبة الإسلام عليها واعتبارها مهد الإسلام ومحضنه ، وقاعدة الدعوة ، ومثابة العقيدة — كان وجود الشركين فى الجزيرة تهديدا دائما للعقيدة الجديدة، ولأهلها الذين اتجهت إليهم الأنظار ، وأخذ الروم يجهزون جيوشهم على أطرافها — قبيل غزوة تبوك بعد الفتح — فلم يكن بد أن تخلص الجزيرة العربية للإسلام، وأن تتخلص من الشرك، وأن تنتهى العهود بين الرسول — صلى الله عليه وسلم — والشركين فى الجزيرة كافة .

كذلك كان فى الجزيرة من أهل الكتاب جماعات انحرفت عن كتابها ، سواء فى ذلك اليهود والنصارى ، وأشركت بالله بعض خلقه ، ومنهم من كان شوكة فى ظهر المسلمين ، ومنهم من حرض على المسلمين ، ومنهم من حالف على المسلمين.. فلم يكن بد كذلك من تطهير الجزيرة من هذا اللون من الشرك ، ومن تأمين ظهور المسلمين ، وحماية المعسكر الإسلامى من الجاسوسية والدسيسة .

وكان هنالك منافقون يظهرون الإسلام ، وهم حرب عليه ، وهم دسيسة فى صفوف المسلمين ، تخذلهم وتنشر القلق والاضطراب بينهم . فلم يكن بد أن يكشفهم الله للمسلمين ، وأن يحذرهم كيدهم ، وأن يأمر الرسول أن يعزلهم ويأخذهم بما ينكشف من تدبيراتهم ، وفى هذه السورة تحديد حاسم لموقف المسلمين من المنافقين .

والجهاد هو الوسيلة لتطهير الجزيرة من هذا الرجس كله .. ومن ثم تناولت السورة موضوع الجهاد ، بالنفس والمال، وبينت شرفه وأجره ، وأنحت على المتخلفين القاعدين ؛ واستجاشت وجدان المسلمين إلى قتال الكفار والمنافقين ، بما صورت من كيدهم للمسلمين وحقدهم عليهم ، وتمنى الشر لهم ، وما تحمله لهم نفوسهم من الخصومة والبغضاء ، وما وقع منهم للرسول — صلى الله عليه وسلم — ومن معه من المؤمنين .

وبذلك كانت سورة التوبة تحمل القول الفصل فى علاقات المسلمين بغيرهم ، وتحدد موقفهم الحاسم الأخير .

هذه السورة لم تكتب البسملة فى أولها كبقية سور القرآن . روى الترمذى — بإسناده — عن ابن عباس قال : قلت لعثمان بن عفان : ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال ، وهى من المثانى

وإلى براءة وهى من المثين ، وقرنتم بينها ولم تكتبوا بينهما سطر : بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتموها فى السبع الطوال ، ما حملكم على ذلك ؟ فقال عثمان : كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كان مما يأتى عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذات العدد ؛ فكان إذا نزل عليه الشىء دعا بعض من كان يكتب ، فيقول : ضعوا هذه الآية فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا ؛ وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة ، وكانت براءة من آخر ما نزل من القرآن ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، وخشيت أنها منها ، وقبض رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ولم يبين لنا أنها منها ، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ، ووضعتها فى السبع الطوال .

هـذه رواية . وربما لم تبدأ هذه السورة بالبسملة لأنها تبدأ بإعلان الحرب الشاملة ونبذ العهود كافة ، والبسملة تحمل روح السلام والطمأنينة . لذلك لم تبدأ بها سورة الحرب والقتال .

وأول هذه السورة نزل على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لما رجع من غزوة تبوك ، وهم بالحج ، ثم ذكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم فى ذلك ، وأنهم يطوفون بالبيت عراة ، فكره مخالطتهم ، وبعث أبا بكر الصديق — رضى الله عنه — أميرا على الحج تلك السنة ، ليقيم للناس مناسكهم، ثم نزلت براءة ..روى محمد بن إسحاق — بأسناد — عن محمد بن على بن الحسين بن على قال : لما نزلت براءة على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وكان بعث أبا بكر ليقيم الحج للناس ، فقيل يارسول الله : لو بعثت إلى أبى بكر ؟ فقال : «لايؤدى عنى إلا رجل من أهل بيتى » ثم دعا عليا فقال : اذهب بهذه القصة من سورة براءة ، وأذن فى الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى : أنه لا يدخل الجنة كافر ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عهد عند رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فهو إلى مدته.فخرج على — رضى الله عنه — على ناقة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — العضباء ، حتى أدرك أبا بكر فى الطريق . فلما رآه أبو بكر قال : أمير أو مأمور ؟ فقال : بل مأمور . ثم مضيا فأقام أبو بكر للناس الحج إذ ذاك فى تلك السنة على منازلهم من الحج التى كانوا عليها فى الجاهلية ؛ حتى إذا كان يوم النحر قام على بن أبى طالب ، فأذن بالناس بالذى أمره رسول الله —صلى الله عليه وسلم — فقال : يأيها الناس إنه لايدخل الجنة كافر ، ولايحج بعد العام مشرك ، ولايطوف

بالبيت عريان ، ومن كان له عهد عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهو إلى مدته . فلم يحج بعد ذلك العام مشرك ، ولم يطف بالبيت عريان . ثم قدما على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكان هـذا براءة فيمن كان من أهل الشرك من أهل العهد العام ، وأهل المدة إلى الأجل المسمى » .

* * *

فأما هذا الدرس الأول من سورة التوبة ، فهو يتضمن إعلان براءة الله ورسوله من كل عهد مع المشركين ؛ وإنظارهم بعد هذا الإعلان أربعة أشهر ، يتخذون فيها أهبتهم ، ويتدبرون فيها أمرهم ، ويتنقلون فى الأرض آمنين ، ثم تعلن بعدها الحرب العامة بين المسلمين والمشركين فى أنحاء الجزيرة العربية جميعا ـ أربعة أشهر لمن كان له عهد عام غير محدد الأجل ، فأما العهود ذات الأجل فتنتهى بانتهاء آجالها ..

كما يتضمن بيانا لأسباب هذا القرار الحاسم ، واستحقاق المشركين للقتل والقتال ، بماقدموا للمسلمين من إيذاء ، وبما يحملون لهم فى نفوسهم من غل ، وبما يدبرون لهم من شر ، وبما نكثوا من عهودهم وأيمانهم مع الرسول والمسلمين .

كذلك يكشف عن حكمة الجهاد وعلته فى خاصة الجماعة الإسلامية .. إنه ابتلاء وامتحان لـكشف الخبء فى الصدور ، وتمييز الفئة المؤمنة المجاهدة ، وفضح المنافقين الذين يسرون غير مايعلنون ، ويتخذون لهم دخيلة دون الله ورسوله ودون المؤمنين .

ثم يقرر عدم استحقاق المشركين لعمارة البيت ، ولعمارة بيوت الله جميعا . فذلك حق المسلمين الذين يقومون فى بيوت الله عن إيمان وطهارة واعتقاد . وما كانت عمارة المشركين للبيت وسقاية الحاج فى الجاهلية لتعطيهم هذا الحق فى الإسلام ، ولا لتعفيهم من نبذ عهودهم ومعالنتهم بالقتال .

ولما كانت هنالك وشائج من القرابة والصلات والمصالح بين المسلمين والمشركين ما تزال ، فقد جاء الأمر الصريح الحاسم بحسم هذه العلاقات ونبذها ، وتهديد من يبقى على شىء منها ، أو يتأثر بها أى تأثر ؛ فإما أن يتجرد المسلمون من كل مصالح الأرض فى سبيل العقيدة ، وإما أن ينتظروا جزاء الفاسقين عن دين الله ، وهو وعيد رهيب مخيف .

ثم تذكير للمسلمين بموقفهم فى حنين ـ إذ أعجبتهم كثرتهم فلم تغن عنهم شيئا ـ ليتذكروا أن النصر إنما هو بيد الله وحده . فإن أرادوا النصر فليتجردوا لله من كل قرابة وكل مصلحة وكل لذة .

وينتهى الدرس بإعلان حاسم جازم : « إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هـذا » .. وبه ينتهى تحـديد العلاقة بين المعسكرين تحـديدا فاصلا واضحا لا رجعة فيه ..

***

« براءه من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين . فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر ، واعلموا أنكم غير معجزى الله . وأن الله مخزى الـكافرين . وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله، فإن تبتم فهو خير لـكم ، وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله ، وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ـ إلا الذين عاهدتم من المشركين ، ثم لم ينقصوكم شيئا ، ولم يظاهروا عليكم أحدا ، فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ، إن الله يحب المتقين . فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ، وخذوهم واحصروهم ، واقعدوا لهم كل مرصد ، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم » ..

لقد اختير يوم جامع حافل ، يوم النحر بمنى ، حيث يجتمع الحجيج من كل فج ، ويتلاقى الناس من كل واد .. اختير هذا اليوم الجامع الحافل ليعلن الإسلام على رؤوس الأشهاد ، نبذ عهود المشركين إليهم ، وإعلان الحرب العامة عليهم . فلم يبيتهم الإسلام غدرا ، ولم يأخذهم بغتة، ولم يجازهم على نقض عهودهم معه بأخذهم خلسة وهم غافلون . إنما أنذرهم علانية ؛ ثم أعطاهم مهلة كافية .. أربعة أشهر لمن كان له عهد عام غير محدد ، ونهاية الأجل لمن كان له عهد معلوم .. أربعة أشهر يسيحون فيها فى الأرض ، ينظمون أمورهم ويدبرون أحوالهم ، من كانت له تجارة صفاها ، ومن كان له دين تقاضاه ، ومن كانت له صلات دبرها ، ومن كان مسافرا عاد ، ومن كان يهم بسفر حسب حساب الحالة الجديدة فى العلاقات .. إنه العدل مع الخصوم، والشرف مع الأعداء ، والنظافة والنصاعة ، والأفق الـكريم الوضىء الذى لم يبلغه إلا الإسلام .

« براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين » . . والتبرؤ يكون من الإثم والخطيئة ، ومن الأمر الشائن الذي يحسن البعد عنه ، ويسوء التلبس به . وهذا هو الظل الذي يلقيه النص على عهود المشركين ، وعلى كل صلة بينهم – منذ اللحظة – وبين المسلمين . إن الله ورسوله يبرآن من كل صلة ومن كل علاقة ومن كل عهد يربط بين المسلمين والمشركين ؛ فهي القطيعة الحاسمة الفاصلة التي لا رجعة فيها ولا هوادة .

« فسيحوا في الأرض أربعة أشهر ، واعلموا أنكم غير معجزي الله » . . فهي مهلة يقتضيها الشرف والعدالة ؛ ولكنها لن تعطي المشركين فرصة السبق والغلب ، لأن قوتهم البشرية الفانية إنما تقف أمام القوة الجبارة الباقية . فلن يعجزوا الله ، الذي قدر عليهم الخزي والهزيمة فهي من نصيبهم لا تفوتهم « وأن الله مخزي الكافرين » .

« وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله ، فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله ، وبشر الذين كفروا بعذاب أليم » . . فالأولى براءة والثانية إعلان لهذه البراءة على رؤوس الأشهاد . ثم دعوة إلى التوبة والرجوع إلى الله ، وبشارة بالخير – دون تفصيل – إن اختاروا التوبة والإيمان ، فما يحمل لهم الإسلام ولا المسلمون حقدا شخصيا ، ولا عداء ذاتيا . إنما هو الإيمان مفرق الطريق بين حزب الله وحزب الشيطان . فمن دخل في الصف فهو أخ يرحب به الإسلام والمسلمون ، ومن خالف عنه فهو وما أراد ، ولن يعجز الله ، ولن ينجو من العذاب .

« إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا ، فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم . إن الله يحب المتقين » . . فهي التقوى . هي حساسية الضمير . هي مراقبة الله . تدعو إلى احترام العهود . والله يحب المتقين الذين لا يغدرون ولا يظلمون . فمن كان له عهد من المشركين ، ثم لم يخل بشيء منه ، ولم يعن أعداء المسلمين عليهم ، فهو إلى مدته ، وعهده مصون حتى ينتهي إلى أجله . ولكنه لا يجدد لأن المعسكر الإسلامي يجب أن يخلص إلى الأبد من الدخلاء المريبين .

« فإذا انسلخ الأشهر الحرم » . . وانتهت المهلة التي حددها الإعلان ، وحرم فيها القتال ، فهي الحرب العامة الشاملة على المشركين حيثما وجدهم المسلمون ، وهو الحصار والتربص لهم

فى كل طريق . . ذلك إلا أن يدخلوا فى الإسلام فيتوبوا ويقيموا الصلاة ـ عماد العلاقة بينهم وبين الله ـ ويؤتوا الزكاة ـ عماد العلاقة بينهم وبين الجماعة الإسلامية ـ فليس للمسلمين حينئذ عليهم من سبيل ، وأمرهم فيما فرط منهم إلى الله « إن الله غفور رحيم » . .

ذلك فيما يتعلق بمشركى الجزيرة وحدها ، بوصفها قاعدة العقيدة ـ كما أسلفنا ـ فأما المشركون خارجها ، فالأمر بينهم وبين الأمة المسلمة ألا يقفوا بالقوة فى سبيل الدعوة الإسلامية ، وألا يفتنوا المسلمين عن دينهم ، وألا يقاتلوا المسلمين أو يظاهروا عليهم ، أو يخرجوهم من ديارهم .

وما يريد الإسلام بهذا الإجراء أن يكره الناس على الإسلام ، إنما يريد أن يؤمن المعسكر الإسلامى ، وأن يأمن هو شر الكائدين له ، المعتدين عليه ، الذين يتربصون به الدوائر ، ويخونون معه العهود ، ويرتقبون كل غرة ليأخذوه وأهله وهم غافلون . . يريد أن يؤمن ظهره ، وأن يواجه أعداءه خارج الجزيرة ـ وقد أخذوا فى التجمع له ـ وهو مطمئن إلى مؤخرته .

فأما حين لا يكون هناك خطر من المشركين . كما لو كانوا أفرادا غير متجمعين ، ولا متسلحين ، ولا يملكون للإسلام شرا ،فيبلغ الإسلام من السماحة آفاقا ما تزال البشرية إلى هذه اللحظة تتطلع إليها ، وهى منها بعيد .

« وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ، ثم أبلغه مأمنه . ذلك بأنهم قوم لا يعلمون » . .

إن على المسلمين حين يستجير بهم مشرك ، لا يملك قوة ، ولا يستطيع أذى ، لا أن يكرهوه على الإسلام وهو أعزل ضعيف ، ولكن أن يجيروه ويصونوا حياته وماله وحريته ، وأن يسمعوه كلام الله لعله يهتدى ويتوب ، ولكن دون إكراه ولا ترهيب . ثم عليهم بعد ذلك أن يخفروه ويحرسوه حتى يبلغ مكانا آمنا يطمئن فيه على حياته وماله . . فأية سماحة ؟ وأية عدالة ؟ وأية رعاية لكرامة العقل والضمير ؟ إن الشيوعية ـ وهى فكرة رجل يخطىء ويصيب ـ لا يسمح أتباعها لفرد يعيش بين ظهرانيهم ، وهو لا يؤمن بفكرة أرضية ، صاحبها يخطىء ويصيب ! هذا فى القرن العشرين وبعد أن شاعت فيه حرية التفكير !

***

فأما تعليل ذلك الإعلان العام ، وتلك البراءة الكاملة ، وهذه القطيعة الشاملة ، فهو العداوة المتأصلة فى نفوس المشركين للمسلمين ، وهى النية السوداء يبيتونها لهم ، وهى الفجور فى الفتك بالمسلمين لو ظفروا بهم ، وهى اختيار الكفر على الإيمان والصد عن سبيل الله . فإما أن يتوبوا فيقبلوا فى صفوف المسلمين ، وإما أن يتولوا فيحق عليهم العذاب الأليم :

« كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله ؟ ـ إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام ، فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين ـ كيف ؟ وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة ، يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون ، اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا ، فصدوا عن سبيله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون . لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة ، وأولئك هم المعتدون . فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين ـ ونفصل الآيات لقوم يعلمون ـ وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون » . .

إن الإسلام هنا يقرر مبدأ ويضع قاعدة ، فهو يستنكر ما يخالفها وينفى مبرراته : « كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله ؟ » إنهم يشركون بالله فلا يجوز أن يكون بينهم عهد وبين الله . إنهم يدينون بغير الرسالة التى بعث بها رسوله ، فلا يجوز أن يكون بينهم عهد وبين رسوله .

وبمناسبة هـذا الاستنكار العام ، يعود إلى استثناء أصحاب العهود السابقة الذين استثناهم فى البراءة والإعلان ، يعود إلى استثنائهم فى بيان كامل دقيق ، فيعيد نص الاستثناء الأول كاملا على وجه التقريب ، ويضيف إليه شرط الاستقامة من جانب المعاهدين على العهود ، كى تكون المواد التى تقرر العلاقات الدولية بين المعسكرين واضحة جلية ، دقيقة فى مناسبتها الأولى والثانية : « إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام ، فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم . إن الله يحب المتقين » . والتعبير عن الوفاء بالاستقامة مقصود ، لأن نقض العهود التواء وانحراف عن الطريق القويم . والتعقيب بالتقوى هنا كالتعقيب بالتقوى هناك ، لإبراز المعنى الأخلاقى الربانى فى الوفاء بالعهود . فالوفاء استقامة فى الشعور وحساسية فى الضمير ، وأدب يتصل بما بين العبد والرب من تقدير .

ويعود — بعد هذا الاستثناء التحفظي — إلى استنكار قيام عهد للمشركين عند الله وعند الرسول ؛ وهم لا يضمرون إلا الشر لمن آمنوا بالله والرسول : « كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة ؟ يرضونكم بأفواهم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون » .. فهم لا يتقون الله فى المؤمنين لو ظفروا بهم وانتصروا عليهم ، ولا يرعون عهدا ولا ذمة ، ولا يتحرجون من منكر يأتونه معهم ، ولا يقفون عند حد فى التنكيل بهم . إن قلوبهم تغل بالكره والبغض ، وتنضح بالحقد والكيد ؛ ولكنهم يرضون المؤمنين بأفواههم ، بالكلام المعسول، الذى لا تريده قلوبهم ولا ترتضيه . وأكثرهم فاسقون منحرفون ، لا يستقيمون على عهد ولا طريق ..

ثم إنهم « اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا » .. فقد كانت هذه الآيات بين أيديهم ، يملكون الاهتداء بها لو أرادوا ، ولكنهم تركوها فى مقابل نفع قليل ينالهم فى هذه الدنيا ، أو اتقاء خسارة مادية قليلة يتوقعونها ؛ فكأنما باعوا آيات الله بهذا الثمن القليل فخسروها ؛ « فصدوا عن سبيل الله » وأعرضوا « إنهم ساء ما كانوا يعملون » .

ثم يعود السياق إلى توكيد مشاعرهم تجاه المؤمنين عامة ، وطبيعتهم المعتدية الآثمة الراغبة فى الإيذاء والشر : « لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة ، وأولئك هم المعتدون » فالشر فى نفوسهم عميق أصيل .

ومع هذا كله فالباب أمامهم مفتوح ، والماضى كله يمكن أن تطوى صفحته ، والإسلام يحتضن إليه كل من يتوب ويثوب : « فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين » لهم كل حقوق الأخوة الإسلامية بتلك الشروط : التوبة وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة . والنص يقرر هذه الشروط فى دقة كاملة ووضوح ، لأنه بصدد تشريع محدد النصوص : « ونفصل الآيات لقوم يعلمون » .

فأما إذا لجوا فى طريقهم الفاسق المنحرف ، ولم يحافظوا على عهودهم وقد حفظها لهم الإسلام ، وطعنوا فى دين المسلمين ، فلا عهد لهم إذن ولا ذمام : « فقاتلوا أئمة الكفر ، إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون » ..

قاتلوا أئمة الكفر الذين يدعون إليه ، ويؤمون غيرهم إلى الضلال ، ويقودونهم إليه : قاتلوهم إنهم لا أيمان لهم ، فهم لا يحافظون على عهد يقطعونه ، ولا يتحرجون من يمين

يقسمونها ، ولا ضمان من غـدرهم وقد مردوا على نقض العهود « لعلهم ينتهون » فالقوة قد تردهم عن الـكفر والغدر والنكث بالعهود .

***

ويمضى السياق فى تحريض المسلمين على الجهاد ، فيلمس وجـدانهم بالمنطق الواقعى المثير ، يمضى فيستعرض النقط الرئيسية المثيرة لمشاعر المسلم ، ويجمعها كلها فى مطلع الآية ، فيبـدو التقاعس عن قتال المشركين عجيبا جد عجيب :

« ألا تقاتلون قوما نـكثوا أيمـانهم ، وهموا بإخراج الرسول ، وهم بدأوكم أول مرة ؟ أتخشونهم ؟ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين . قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ، ويخزهم وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين ، ويذهب غيظ قلوبهم ، ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم . أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ، ولم يتخذوا من دون الله ولارسوله ولا المؤمنين وليجة ؟ والله خبير بما تعملون » ..

ألا تقاتلون قوما هـذا موقفهم وهـذا سلوكهم وهذا ماضيهم ؟ ألا تقاتلون قوما نقضوا عهودهم معكم فليس لهم شرف وليس لهم ضمير ولستم تأمنون أن يبيتوكم بالغدر ، وأنتم غارون غافلون ؟ فهم مصدر تهديد دائم لـكم ، ولا اطمئنان إلى جوارهم ولا أمان ؟ ألا تقاتلون قوما هموا بإخراج رسولـكم وتآمروا عليه ، ولو نجح تدبيرهم لنالوا منه ، وما عصمه منهم إلا الله ، الذى أبطل تدبيرهم اللئيم ؟

ألا تقاتلون قوما بدأوكم أول مرة بالأذى والقتال ، فهم المعتدون البادئون المتحدون ؟

ألا تقاتلون قوما قدموا لـكم كل هـذه المساءات ؟ « أتخشونهم ؟ » فتناموا على الضيم وتنسوا مكرهم بالرسول ، وتبيتوا على الحذر والقلق خوفا وخشية ؟ « فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين » فالإيمان بالله يقتضى ألا يخشى المؤمنون به سواه .

وإن مشاعر المسلمين لتثور ، وهم يذكرون بتآمر المشركين على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بغيا وعدوانا . وهم يستعرضون نكث المشركين للعهود ، وتبييتهم المسلمين بالغدر كلما التمسوا منهم غرة ، أو وجـدوا فى موقفهم ثغرة . وهم يتذكرون مباداة المشركين لهم

بالعداء والقتال بطرا وطغيانا .. وفى غمرة هذه الثورة والغضب المكتوم يحرض المؤمنين على القتال : « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم ، وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين، ويذهب غيظ قلوبهم » .. قاتلوهم يجعلكم الله ستار قدرته ، وأداة مشيئته ، فيعذبهم بأيديكم ويخزهم بالهزيمة وهم يتخايلون بالقوة ، وينصركم عليهم ويشف صدور جماعة المؤمنين من غيظها المكظوم بانتصار الحق كاملا ، وهزيمة الباطل وتشريد المبطلين ..

وليس هذا وحده ولكن خيرا آخر ينتظر وثوابا آخر ينال : « ويتوب الله على من يشاء » .. فانتصار المسلمين قد يرد بعض المشركين إلى الإيمان ، ويفتح بصيرتهم على الهدى حين يرون المسلمين ينصرون ، ويحسون أن قوة غير قوة البشر تؤيدهم ، ويرون آثار الإيمان فى مواقفهم ــ وهذا ما كان فعلا ــ وعندئذ ينال المسلمون المجاهدون أجر جهادهم ، وأجر هداية الضالين بأيديهم ؛ وينال الإسلام قوة جديدة تضاف إلى قوته بهؤلاء المهتدين التائبين . « والله عليم حكيم » عليم بالعواقب المخبوءة وراء المقدمات . حكيم يقدر نتائج الأعمال والحركات .

إن بروز قوة الإسلام وتقريرها ليستهوى قلوبا كثيرة تصد عن الإسلام الضعيف، أو الإسلام المجهول القوة والنفوذ . وإن الدعوة إلى الإسلام لتختصر نصف الطريق حين تكون الأمة المسلمة بادية القوة ، مرهوبة الجانب ، عزيزة الجناب .

ثم إنه لم يكن بد أن يجاهد المسلمون المشركين كافة ، وأن تنبذ عهود المشركين كافة، وأن يقف المسلمون إزاءهم صفا .. لم يكن بد من ذلك لكشف النوايا والخبايا ، ولإزالة الأستار التى يقف خلفها من لم يتجرد للعقيدة ، والأعذار التى يحتج بها من يتعاملون مع بعض المشركين للكسب ، ومن يوادونهم لآصرة من قربى أو مصلحة .. لم يكن بد من إزالة هذه الأستار والمعاذير ، وإعلان الخصومة للجميع ، لينكشف الذين يخبأون فى قلوبهم خبيئة ، ويتخذون من دون الله ورسوله والمؤمنين وليجة ، يلجون منها إلى مصالحهم وروابطهم مع المشركين ، فى ظل المواثيق والعهود ، وفى ظل العلاقات غير المتميزة أو الواضحة بين المعسكرات المختلفة : « أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة ، والله خبير بما تعملون » .

إن فى كل جماعة فئة لبقة مرنة ناعمة ، تجيد المداورة ، وتنفذ من الأسوار ، وتتقن

استخدام الأعذار . هذه الفئة تدور من خلف الجماعة ، وتتصل بخصومها استجلابا للمصلحة ولو على حساب الجماعة ، مرتكنة إلى ميوعة العلاقات ووجود ثغرات فى الخصومة بين المعسكرات . فإذا وضحت الخصومة وأعلنت قطعت الطريق على تلك الفئة ، وكشفت المداخل والمسارب للأنظار .

وإنه لمن مصلحة الجماعة ، ومن مصلحة العقيدة ، أن تهتك الأستار وتكشف الولائج ، وتعرف المداخل ، فيمتاز المكافحون المخلصون ، ويكشف المداورون الملتوون . ويعرف الناس كلا الفريقين على حقيقته ، وإن كان الله يعلمهم من قبل « والله خبير بما تعملون » . .

***

وبعد البراءة والإعلان لم يبق عذر ولا حجة لمن لا يقاتل المشركين ؛ ولم يعد هنالك تردد فى حرمانهم زيارة البيت أو عمارته ، وقد كانوا يقومون بهما فى الجاهلية ، وهنا ينكر السياق على المشركين أن يكون لهم الحق فى أن يعمروا بيوت الله ، فهو حق خالص للمؤمنين بالله ، القائمين بفرائضه ؛ وما كانت عمارة البيت فى الجاهلية وسقاية الحاج لتغير من هذه القاعدة :

« ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر ؛ أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون . إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، ولم يخش إلا الله ، فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين . أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر ، وجاهد فى سبيل الله ؟ لا يستوون عند الله ، والله لا يهدى القوم الظالمين . الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله ، وأولئك هم الفائزون . يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان ، وجنات لهم فيها نعيم مقيم ، خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم » .

« ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر » . . فهو أمر مستنكر منذ الابتداء ، ليس له مبرر لأنه مخالف لطبائع الأشياء . إن بيوت الله خالصة لله ، لا يذكر فيها إلا اسمه ، ولا يدعى معه فيها أحد غيره ، فكيف يعمرها من لا يعمر التوحيد قلوبهم ، ومن يدعون مع الله شركاء ، ومن يشهدون على أنفسهم بالكفر شهادة الواقع

الذى لا يملكون إنكاره ، ولا يسعهم إلا إقراره ؟ « أولئك حبطت أعمالهم » فهى باطلة أصلا ، ومنها عمارة بيت الله التى لا تقوم إلا على قاعدة من توحيد الله « وفى النار هم خالدون » بما قدموا من الكفر الواضح الصريح .

إن العبادة تعبير عن العقيدة ؛ فإذا لم تصح العقيدة لم تصح العبادة ؛ وأداء الشعائر وعمارة المساجد ليست بشىء ما لم تعمر القلوب بالإيمان الحق الصحيح ، وبالعمل الواقع الصريح ، وبالتجرد لله فى العمل والعبادة على السواء : « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله » . والنص على خشية الله وحده دون سواه بعد شرطى الإيمان الباطن والعمل الظاهر ، لايجىء نافلة . فلابد من التجرد لله ؛ ولابد من التخلص من كل ظل للشرك فى الشعور أو السلوك ؛ وخشية أحد غير الله لون من الشرك الخفى ينبه إليه النص قصدا فى هذا الموضع ليتمحض الاعتقاد والعمل كله لله . وعندئذ يستحق المؤمنون أن يعمروا مساجد الله ، ويستحقون أن يرجوا الهداية من الله : « فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين » فإنما يتوجه القلب وتعمل الجوارح ، ثم يكافىء الله على التوجه والعمل بالهداية والوصول والنجاح .

هذه هى القاعدة فى استحقاق عمارة بيوت الله ؛ وفى تقويم العبادات والشعائر على السواء . فما يجوز أن يسوى الذين كانوا يعمرون الكعبة ويسقون الحجيج فى الجاهلية ، وعقيدتهم ليست خالصة لله ، ولا نصيب لهم من عمل أو جهاد ، لا يجوز أن يسوى هؤلاء — لمجرد عمارتهم البيت وخدمتهم للحجيج — بالذين آمنوا إيمانا صحيحا وجاهدوا فى سبيل الله وإعلاء كلمته : « أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله ؟ » . . « لا يستوون عند الله » وميزان الله هو الميزان وتقديره هو التقدير . « والله لا يهدى القوم الظالمين » الذين لايدينون دين الحق ، ولا يخلصون عقيدتهم من الشرك ، ولو كانوا يعمرون البيت ويسقون الحجاج .

وينتهى هذا المعنى بتقرير فضل المؤمنين المهاجرين المجاهدين ، وما ينتظرهم من رحمة ورضوان ، ومن نعيم مقيم وأجر عظيم : « الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله ، وأولئك هم الفائزون . يبشرهم ربهم برحمة منه

ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ، خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم » . . وأفعل التفضيل هنا فى قوله : « أعظم درجة عند الله » ليس على وجهه فهو لا يعنى أن للآخرين درجة أقل ، إنما هو التفضيل المطلق . فالآخرون « حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون » فلا مفاضلة بينهم وبين المؤمنين المهاجرين المجاهدين فى درجة ولا فى نعيم .

* * *

ثم يمضى السياق فى تجريد المشاعر والصلات فى قلوب الجماعة المؤمنة ، وتمحيصها لله ولدين الله ؛ فيدعو إلى تخليصها من وشائج القربى والمصلحة واللذة ، ويجمع كل لذائذ البشر ، وكل وشائج الحياة ، فيضمها فى كفة ، ويضع حب الله ورسوله وحب الجهاد فى سبيله فى الكفة الأخرى ، ويدع للمسلمين الخيار.

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء — إن استحبوا الكفر على الإيمان — ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون . قل : إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها .. أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله ، فتربصوا حتى يأتى الله بأمره . والله لا يهدى القوم الفاسقين » ..

إن هذه العقيدة لا تحتمل لها فى القلب شريكا ؛ فإما تجرد لها ، وإما انسلاخ منها . وليس المطلوب أن ينقطع المسلم عن الأهل والعشيرة والزوج والولد والمال والعمل والمتاع واللذة ؛ ولا أن يترهبن ويزهد فى طيبات الحياة .. كلا إنما تريد هذه العقيدة أن يخلص لها القلب ، ويخلص لها الحب ، وأن تكون هى المسيطرة والحاكمة ، وهى المحركة والدافعة . فإذا تم لها هذا فلا حرج عندئذ أن يستمتع المسلم بكل طيبات الحياة ؛ على أن يكون مستعدا لنبذها كلها فى اللحظة التى تتعارض مع مطالب العقيدة.

ومفرق الطريق هو أن تسيطر العقيدة أو يسيطر المتاع ، وأن تكون الكلمة الأولى للعقيدة أو لعرض من أعراض هذه الأرض . فإذا اطمأن المسلم إلى أن قلبه خالص لعقيدته فلا عليه بعد هذا أن يستمتع بالأبناء والإخوة وبالزوج والعشيره ؛ ولا عليه أن يتخذ الأموال

والمتاجر والمساكن ؛ ولا عليه أن يستمتع بزينة الله والطيبات من الرزق . بل إن المتاع بها حينئذ لمستحب ، باعتبـاره لونا من ألوان الشكر لله الذى أنعم بها ليتمتع بها عبـاده ، وهم يذكرون أنه الرازق المنعم الوهاب .

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أوليـاء ـ إن استحبوا الكفر على الإيمان ـ » وهكذا تتقطع أواصر الدم والنسب ، إذا انقطعت آصرة القلب والعقيدة . وتبطل ولاية القرابة فى الأسرة إذا بطلت ولاية القرابة فى الله . فلله الولاية الأولى ، وفيها ترتبط البشرية جميعا ، فإذا لم تكن فلا ولاية بعد ذلك ، والحبل مقطوع والعروة منقوضة « ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون ».

ولا يكتفى السياق بتقرير المبدأ ، بل يأخذ فى استعراض ألوان الوشائج والمطامع واللذائذ ؛ ليضعها كلها فى كفة ويضع العقيدة ومقتضياتها فى الكفة الأخرى : الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة (وشيجة الدم والنسب والقرابة والزواج) والأموال والتجارة (مطمع الفطرة ورغبتها) والمساكن المريحة (متاع الحياة ولذتها) .. وفى الكفة الأخرى : حب الله ورسوله وحب الجهاد فى سبيله . الجهاد بكل مقتضياته وبكل مشقاته. الجهاد ومايتبعه من تعب ونصب ، وما يتبعه من تضييق وحرمان ، وما يتبعه من ألم وتضحية ، ومايتبعه من جراح واستشهاد . . وهو ـ بعد هـذا كله ـ الجهاد فى سبيل الله مجردا من كل الصيت والذكر والظهور . مجردا من المباهاة ،والفخر والخيلاء . مجردا من إحساس أهل الأرض به وإشارتهم إليه وإشادتهم بصاحبه . وإلا فلا أجر عليه ولا ثواب ..

ألا إنهـا لشاقة . ألا وإنها لكبيرة . ولـكنها هى ذاك . . وإلا « فتربصوا حتى يأتى الله بأمره » . وإلا فتعرضوا لمصير الفاسقين : « والله لا يهدى القوم الفاسقين » . .

وهذا التجرد لا يطالب به الفرد وحده ، إنما تطالب به الجماعة المسلمة ، والدولة المسلمة . فما يجوز أن يكون هناك اعتبار لعلاقة أو مصلحة يرتفع على مقتضيات العقيدة فى الله ومقتضيات الجهاد فى سبيل الله .

ومايكلف الله الفئة المؤمنة هذا التكليف ، إلا وهو يعلم أن فطرتها تطيقه ـ فالله لا يكلف نفسا إلا وسعها ـ وإنه لمن رحمة الله بعباده أن أودع فطرتهم هذه الطاقة العالية من التجرد

والاحتمال ؛وأودع فيها الشعور بلذةعلوية لذلك التجرد لاتعدلها لذائذ الأرض كلها ، لذة الشعور بالاتصال بالله ،ولذة الرجاء فى رضوان الله، ولذة الاستعلاء على الضعف والهبوط، والخلاص من ثقلة اللحم والدم ، والارتفاع إلىالأفق المشرق الوضيء. فإذا غلبتها ثقلة الأرض ففى التطلع إلى الأفق مايجدد الرغبة الطامعة فىالخلاص والفكاك .

***

ثم لمسة للمشاعر بالذكرى ، وباستعراض صفحة من الواقع الذى عاشه المسلمون إذ ذاك منذ قريب .. يوم حنين .. يوم غفلت قلوب المسلمين لحظات عن الله مأخوذة بالكثرة فى العدد والعتاد . ليعلم المؤمنون أن التجرد لله ، وتوثيق الصلة به هى عدة النصر التى لا تخذلهم حين تخذلهم الكثرة فى العدد والعتاد ؛ وحين يخذلهم المال والإخوان والأولاد :

« لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ، ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا ، وضاقت عليكم الأرض بمارحبت ثم وليتم مدبرين؛ ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وأنزل جنودا لم تروها ،وعذب الذين كفروا ، وذلك جزاء الكافرين . ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم » .

وقد كانت وقعة حنين [١] بعد فتح مكه فى شوال سنة ثمان من الهجرة . وذلك لما فرغ — صلى الله عليه وسلم — من فتح مكه ، وتمهدت أمورها ، وأسلم عامة أهلها ، وأطلقهم رسوله الله — صلى الله عليه وسلم — فبلغه أن هوازن جمعوا له ليقاتلوه ، وأن أميرهم مالك بن عوف النضرى ، ومعه ثقيف بكمالها ، وبنو جشم ، وبنو سعد بن بكر ، وأوزاع من بنى هلال — وهم قليل — وناس من بنى عمرو بن عامر وعوف بن عامر ؛ وقد أقبلوا ومعهم النساء والولدان والشاء والنعم ؛ وجاءوا بقضهم وقضيضهم . فخرج إليهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى جيشه الذى جاء معه للفتح وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب ، ومعه الذين أسلموا من أهل مكة وهم الطلقاء فى ألفين ؛ فسار بهم إلى العدو فالتقوا بواد بين مكة

---

(١) بتصرف قليل عن ابن كثير فى التفسير.

والطائف يقال له « حنين » فكانت فيه الواقعة فى أول النهار فى غلس الصبح . انحدروا فى الوادى وقد كمنت فيه هوازن ، فلما توجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد بادروهم ، ورشقوا بالنبال ، وأصلتوا السيوف ، وحملوا حملة رجل واحد كما أمرهم ملكهم . فعند ذلك ولى المسلمون مدبرين — كما قال الله عز وجل — وثبت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يومئذ وهو راكب بغلته الشهباء ، يسوقها إلى نحر العدو ، والعباس آخذ بركابها الأيمن ،وأبو سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب آخذ بركابها الأيسر ، يثقلانها لئلا تسرع السير ، وهو ينوه باسمه — عليه الصلاة والسلام — ويدعو المسلمين إلى الرجعة ، ويقول : « إلى ياعباد الله . إلى أنا رسول الله » ويقول فى تلك الحال : « أنا النبى لا كذب . أنا ابن عبد المطلب » وثبت معه من أصحابه قريب من مئة ، ومنهم من قال ثمانون ؛ فمنهم أبو بكر وعمر — رضى الله عنهما — والعباس وعلى والفضل بن عباس ، وأبو سفيان بن الحارث ، وأيمن بن أم أيمن ، وأسامة بن زيد ، وغيرهم — رضى الله عنهم — ثم أمر النبى — صلى الله عليه وسلم — عمه العباس وكان جهير الصوت أن ينادى بأعلى صوته : ياأصحاب الشجرة — يعنى شجرة بيعة الرضوان التى بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها على ألا يفروا عنه — فجعل ينادى بهم: ياأصحاب السمرة ، ويقول تارة : ياأصحاب سورة البقرة. فجعلوا يقولون: يالبيك ، يالبيك. وانعطف الناس فتراجعوا إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع لبس درعه ثم انحدر عنه وأرسله ، ورجع بنفسه إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فلما اجتمعت شرذمة منهم عند رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أمرهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن يصدقوا الحملة ... وانهزم المشركون فأتبع المسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون ، وما تراجع بقية الناس إلا والأسرى مجندلة بين يدى رسول الله — صلى الله عليه وسلم .

هذه هى المعركة التى اجتمع فيها للمسلمين — للمرة الأولى — جيش عدته اثنا عشر ألفا فأعجبتهم كثرتهم ، وغفلوا بها عن سبب النصر الأول ، فردهم الله بالهزيمة فى أول المعركة إليه ؛ ثم نصرهم بالقلة المؤمنة التى ثبتت مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — والتصقت به .

والنص يعيد عرض المعركة بمشاهدها المادية ، وبانفعالاتها الشعورية : « إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين » فمن انفعال الإعجاب بالكثرة ، إلى زلزلة الهزيمة الروحية ، إلى انفعال الضيق والحرج حتى لكأن الأرض

كلها تضيق بهم وتشد عليهم . إلى حركة الهزيمة الحسية ، وتولية الأدبار والنكوص على الأعقاب .. « ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين » وكأنما السكينة رداء ينزل فيثبت القلوب الطائرة ، ويهدئ الانفعالات الثائرة ، « وأنزل جنودا لم تروها » فلا نعلم ماهيتها وطبيعتها — وما يعلم جنود ربك إلا هو . « وعذب الذين كفروا » بالقتل والأسر والسلب والهزيمة « وذلك جزاء الكافرين » .. « ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم » فباب المغفرة دائما مفتوح لمن يخطئ ثم يتوب .

إن معركة حنين التي يذكرها السياق هنا ليعرض نتائج الانشغال عن الله ، والاعتماد على قوة غير قوته ، لتكشف لنا عن حقيقة أخرى ضمنية. حقيقة القوى التي تعتمد عليها كل عقيدة. إن الكثرة العددية ليست بشيء ، إنما هي القلة العارفة المتصلة الثابتة المتجردة للعقيدة . وإن الكثرة لتكون أحيانا سببا في الهزيمة ، لأن بعض الداخلين فيها ، التائهين في غمارها ممن لم يدركوا حقيقة العقيدة التي ينساقون في تيارها تتزلزل أقدامهم وترتجف في ساعة الشدة ؛ فيشيعون الاضطراب والهزيمة في الصفوف ، فوق ماتخدع الكثرة أصحابها فتجعلهم يتهاونون في توثيق صلتهم بالله ، انشغالا بهذه الكثرة الظاهرة عن اليقظة لسر النصر في الحياة .

لقد قامت كل عقيدة بالصفوة المختارة لا بالزبد الذي يذهب جفاء، ولا بالهشيم الذي تذروه الرياح !

* * *

وعند ما يبلغ السياق إلى هذا المقطع ، ويلمس وجدان المسلمين بالذكرى القريبة من التاريخ ، ينهي القول في شأن المشركين . ويلقى الكلمة الباقية فيهم إلى يوم الدين :

« ياأيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ؛ وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء . إن الله عليم حكيم » ..

إنما المشركون نجس . يجسم التعبير نجاسة أرواحهم فيجعلها ماهيتهم وكيانهم . فهم بكليتهم وبحقيقتهم نجس ، يستقذره الحس ، ويتطهر منه المتطهرون ! وهو النجس المعنوي لا الحسي في الحقيقة ، فأجسامهم ليست نجسة بذاتها . إنما هي طريقة التعبير القرآنية بالتجسيم (1)

(1) يراجع فصل «التخييل الحسي والتجسيم » في كتاب : « التصوير الفني في القرآن ».

« نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » .. كى لا ينجسوه ولا يدنسوه . وتلك غاية فى تحريم وجودهم بالمسجد الحرام . حتى لينصب النهى على مجرد القرب منه زيادة فى الاحتياط .

ولكن الموسم الاقتصادى الذى ينتظره أهل مكة سيضيع بمنع المشركين من الحج ، ولكن المصالح الاقتصادية للدولة المسلمة ستتأثر وتتعرض للمساس .

نعم ولكنها العقيدة . نعم ولكنه التجرد لله . فإما هذه وإما تلك فى التقدير والحساب !

ومع ذلك فالله هو المتكفل بالأمر كله : « وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء » فالأمر كله معلق بمشيئته . وحين يشاء يستبدل أسبابا بأسباب ، وحين يشاء يغلق بابا ويفتح الأبواب .. « إن الله عليم حكيم » يدبر الأمر كله عن تقدير وحساب .

« قَاتِلُوا الذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ * وَقَالَتِ الْيَهُودُ : عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ ، وَقَالَتِ النَّصَارَى : الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ . ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ . قَاتَلَهُمُ اللهُ ! أَنَّى يُؤْفَكُونَ ؟ * اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ، وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِداً ، لَا إِلَهَ إِلا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ، وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ، وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ . وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا

فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ . هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ » .

تضمن الدرس الماضى تقرير الموقف النهائى للإسلام من مشركى الجزيرة . وهو فى هذا الدرس يقرر موقفه كذلك من أهل الكتاب ، الذين انحرفوا عن كتابهم ؛ فلم يعودوا يؤمنون بالله واليوم الآخر إيمانا صحيحا ، ممن زعموا أن لله ـ سبحانه ـ ولدا ، وممن زعموا أن الله لن يحاسبهم فى اليوم الآخر لأنهم خلصاؤه وأحباؤه .. هذا الموقف النهائى هو قتال هؤلاء المنحرفين عن كتابهم فإما أن يفيئوا إلى الدين القيم ، الذى ختمت به الديانات . وإما أن يعطوا الجزية فيأمن الإسلام جانبهم .. وكان هذا أول أمر بقتال أهل الكتاب . وكان قد بلغ الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن الروم جيشوا الجيوش على أطراف الجزيرة فتجهز المسلمون لغزوة تبوك .

وفى صدد الأمر بقتالهم يكشف السياق عن جانب من ضلالهم فى العقيدة وجانب من ضلالهم فى السلوك . فهم فى العقيدة يشركون بالله بعض خلقه ، ويدعون له أبناء ، ويتخذون من أحبارهم ورهبانهم آلهة يحلون لهم مايشاءون ويحرمون عليهم ما يشاءون . وهم فى السلوك يأكل أحبارهم ورهبانهم أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ، ويكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله ..

ومن ثم فهم لا يؤمنون إيمانا صحيحا ، ولا يسلكون سلوكا صحيحا . ولا يتركون الدعوة إلى العقيدة الصحيحة تسير فى أمان ..

***

« قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » ..

لقد جاء الإسلام فوجد أهل الكتاب ـ إلا قليلا منهم ـ قد تركوا أصول كتابهم ، وأخذ أحبارهم ورهبانهم يزيفون لهم دينا غير دين الله الذى جاءهم به أنبياؤهم ، فيحلون لهم ماحرم الله عليهم ، ويحلون لهم حرمات الله فيهم ، ويشترون بآيات الله ثمنا قليلا . وإن منهم من يعلم أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم نبى ، وأن الكتاب الذى معه هو الحق . يعلمون ذلك من كتبهم التى بشر الله فيها بهذا الرسول وحدد صفاته وصفات الأمة التى تتبعه . ولكنهم لا يؤمنون به استبقاء لمصالحهم ومراكزهم ، وحسدا للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقومه ، واستنكافا أن يؤمنوا لرسول ليس منهم كما كانوا يرجون .

ولقد سالمهم الإسلام فترة طويلة ، وقصر جهاده على المشركين ، ولكنهم ظلوا يعادون الإسلام وأهله ويعينون عليهم الكفار ، ويقولون للذين أشركوا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا . وأخيرا أخذت الدولة المسيحية الرومانية تجهز جيوشها على أطراف الجزيرة ، وتستعد للانقاض على قاعدة الإسلام ومحضن العقيدة .. عندئذ أمر المسلمون أن يجاهدوا أهل الكتاب المنحرفين عن كتبهم « الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر » فيخرجون بهذا من زمرة المؤمنين أصلا ، ويلحقون بالمشركين . ولا يحرمون ماحرم الله عليهم .. أمروا بقتالهم حتى يفيئوا إلى الدين الحق ، الذى مهدت له دياناتهم ، وبشرت به كذلك ، والذى أراد الله له أن يكون الدين الأخير للبشر ، والنظام الأخير للحياة ، فلم يجعله مجرد عقيدة تعيش فى الضمير ، بل جعله شريعة تحكم الحياة وتصرفها ، وتنظم النشاط الإنسانى فى كل مجال .. هذا أو يؤدوا الجزية إقرارا بسلطان الإسلام ، وإعلانا بالخضوع لقوته ، وعدم الوقوف فى سبيل دعوته . ولهم فى مقابل الجزية حماية الدولة الإسلامية لهم ، وكفالتها للعاجزين منهم .

والمسلمون يساهمون فى بناء الدولة بأموالهم ـ زكاة ـ وبأرواحهم ـ جهادا ـ وليس على أهل الذمة الذين يعيشون فى ظل هذه الدولة وحمايتها وكفالتها إلا الجزية ـ وهى المساهمة المالية ـ وحدها ـ وهى كما سبق دليل مادى على الخضوع لسلطان الدولة ـ فأما ضريبة الدم فهم معفون منها إلا أن يتطوعوا هم تطوعا ، لأن الجهاد فى الإسلام جهاد فى سبيل الله لإعلاء كلمة الله ، فهم لا يجبرون عليه كما يجبرون على الجزية ، لأن الإسلام لا يجبر الناس على اعتناق عقيدته ـ ومردها إلى اقتناع الضمير ـ إنما يجبرهم على الخضوع لسلطانه ليمنع وقوفهم فى وجه الدعوة ؛ وليؤمن أهله من الفتنة بأيدى المخالفين له ، المؤلبين عليه .

ومع أن أهل الكتاب هؤلاء قريبون كل القرب فى عقائدهم وسلوكهم من المشركين ، فإن الإسلام ظل يراعى أنهم أهل كتاب — حتى بعد انحرافهم عن كتابهم — فلم يعاملهم فى الجزيرة معاملة المشركين الذين لا يقبل منهم إلا الإسلام أو القتال . وقرر أن يقبل منهم الجزية إذا لم يرغبوا فى الإسلام ، وأن يدع لهم حرية الاعتقاد ، استنادا إلى أنهم أهل كتاب من عند الله[1] . وأن يحميهم من كل اعتداء ، وإلا فلا جزية عليهم حينذاك[2] .

* * *

---

(١) يروى الإمام الشافعى والإمام أحمد فى المشهور عنه ألا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب أو من أشبههم كالمجوس كما صح فيهم الحديث أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أخذها من مجوس هجر. ويرى أبو حنيفة أنها تؤخذ من الأعاجم جميعا سواء كانوا من المشركين أو من أهل الكتاب ، ولا تؤخذ من العرب إلا من أهل الكتاب . ويرى مالك أن تضرب الجزية على جميع الكفار من كتابى ومجوسى ووثنى وغير ذلك . وأدلتهم فى هذا تطلب فى كتب الفقه .

(٢) كتب خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا حين دخل الفرات وأوغل فيه . . هذا كتاب من خالد ابن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه . إنى عاهدتكم على الجزية والمنعة ، فلك الذمة والمنعة ، وما منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا . كتب سنة اثنتى عشرة فى صفر .

وكتب أهل ذمة العراق لأمراء المسلمين : « إنا قد أدينا الجزية التى عاهدنا عليها خالد على أن يمنعونا وأميرهم البغى من المسلمين وغيرهم »

ولما بلغ أباعبيدة أن الروم قد جمعوا جموعهم ، ورأى أن ينسحب من بعض البلاد التى أخذت منها الجزية كتب إلى عماله بالشام أن يردوا على أهلها ماأخذوه منهم ، وكتب إليهم أن يقولوا : إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه قد بلغنا ماجمع لنا من الجموع ، وأنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم ، وإنا لا نقدر على ذلك . وقد رددنا عليكم ماأخذنا منكم ونحن لكم على الشرط ، وماكان بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم . فلما قالوا لهم ذلك وردوا عليهم الأموال التى جبوها منهم قالوا : « ردكم الله علينا ونصركم عليهم فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئا وأخذوا كل شىء بقى حتى لا يدعوا شيئا . »

وكتب عتبة بن فرقد عامل عمر بن الخطاب : « هذا ما أعطى عتبة بن فرقد عامل عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أهل أذربيجان : سهلها وجبلها وحواشيها وشفارها وأهل مللها كلهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم ، على أن يؤدوا الجزية على قدر طاقتهم ومن حشر منهم فى سنة (أى جند) وضع عنه جزاء تلك السنة ومن أقام فله مثل مالمن أقام من ذلك » ..

ويعرض السياق هنا نماذج من انحرافهم فى العقيدة :

« وقالت اليهود : عزير ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله . ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل . قاتلهم الله ! أنى يؤفكون ؟ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، والمسيح ابن مريم ؛ وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا ، لاإله إلا هو سبحانه عما يشركون ، يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ،ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولوكره الكافرون . هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون » ..

لقد جاء الرسل كلهم بعقيدة واحدة . عقيدة التوحيد ، التى تنزه الله سبحانه أن يكون له ولد أو صاحبة أو شريك . ولكن هذه العقيدة البسيطة الواضحة لم يحتفظ لها الناس ببساطتها ووضوحها . فإذا جماعة يجعلون لله شركاء ، وإذا جماعة يجعلون لله أبناء . وهذه كتلك انحراف عن العقيدة التى جاء بها الرسل من عند الله .

ولقد واجه القرآن اليهود بأنهم يقولون : عزير ابن الله . وواجه النصارى بأنهم يقولون : المسيح ابن الله . فلم يعترضوا على هذه التهمة الخطيرة ، ولم يكذبوا أنهم يدعون هذه الدعوى التى لا تصدر عن إيمان . فحق عليهم أن يدمغهم بأنهم لا يدينون دين الحق ، ولا يؤمنون بالله . فدين الحق هو دين التوحيد ، والإيمان بالله يقتضى تنزيهه عن مشابهة البشر ، وعن اتخاذه الصاحبة والولد . فالبشر إنما يتخذون الأبناء لحاجتهم إلى الامتداد فى أبنائهم ، وإلى العون فى كبرتهم ، والله سبحانه هو الغنى القوى الخالد الباقى ، الذى خلق كل شىء ، إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون .

وإن الإنسان ليعجب من تصور اليهود والنصارى أن لله ولدا ، مع دعواهم الإيمان بالله ، وهم أهل كتاب . وإنه للكفر والشرك واضحا جليا فما يقولون : « ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل » ويشبهونهم فيه ، فلا فرق بين القول بأن لله شركاء ، والقول بأن لله أبناء .. كلاهما تصور خاطىء منحرف لذات الله وصفاته ، وكلاهما إدراك منحرف لحقيقة الألوهية ،وحقيقة الصلة بين الخالق والمخلوقين .. « قاتلهم الله ! » .. دعاء عليهم بالهلاك ؛ فما مصير من يقاتله الله إلا الهلاك « أنى يؤفكون ؟ » كيف يصرفون عن الحق الواضح الذى لا يملك الناس إزاءه إلا الإقرار والتصديق .

والانحراف فى العقيدة حين يوجد لا يقف عند حد . فهؤلاء اليهود والنصارى لم يقفوا عند ذلك التصور السخيف . تصور بنوة العزير وبنوة المسيح ، بل راح اليهود يؤلهون أحبارهم، والنصارى يؤلهون رهبانهم ... يؤلهونهم بمعنى إعطائهم حق التشريع . حق التحريم والتحليل . والله وحده هو الذى يحرم ويحلل . فما حرمه فهو حرام ، وما أحله فهو حلال . وليس لأحد من خلقه أن يحل ماحرمه . ولا أن يحرم ماأحله . لأن حق التشريع ابتداء خالص لله وحده دون البشر أجمعين . والحاكمية لله وحده بين عباده، والبشر إنما ينفذون شريعته ويطبقونها فيما يعرض لهم من قضايا ، ولا يبتدعون التشريع .. فلما أعطى اليهود ذلك الحق لأحبارهم ، وأعطى النصارى ذلك الحق لرهبانهم وصمهم القرآن الكريم بأنهم يتخذونهم آلهة كما اتخذوا المسيح : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم . وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون » (١)

ويعقب السياق على تصورات اليهود والنصارى والمشركين وأعمالهم بأنهم : « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم . ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » ..

إنها محاولة للقضاء على دين الله الهادى الذى أرسل به رسوله ، ليكون الدين الأخير ، والمنهاج المسيطر على الضمائر والمجتمعات .. ولكن التعبير القرآنى لا يؤديه هذا الأداء . إنما يرسم مشهدا مثيرا على طريقة القرآن فى التصوير « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم » ! ويدع القارئ أو السامع يتصور هؤلاء البشر ينفخون أشداقهم ويزفرون أنفاسهم محاولين إطفاء نور الله الذى يغمر الكون الفسيح ! ويالها من صورة ساخرة حين يتملاها الإنسان على هذا النحو العجيب .

وإنها لحقيقة فى الوقت ذاته : فهؤلاء الذين يحاربون دين الله وهداه ، ويموهونه بتلك التصورات الباطلة والاعتقادات الفاسدة .. إنما يحاولون أن يشيعوا الظلام فى تصورات الناس واعتقاداتهم ، وأن يغشوا نصاعة العقيدة ووضوحها وإشراقها ، وأن يذهبوا بالهدى الذى يكشف الحق وينير الطريق . « ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » فقد أرسل رسوله

---

(١) عن عدى بن حاتم — رضى الله عنه — من حديث طويل : « بل إنهم حرموا عليهم الحلال ، وأحلوا لهم الحرام ، فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم » .. رواه الإمام احمد والترمذى وابن جرير .

بالهدى ودين الحق ، وقدر له أن يظهر وينتصر على العقائد جميعها ، وأن يكون هو الدين الباقى المنتصر إلى يوم الدين .

وننظر اليوم فإذا الإسلام هو العقيدة الدينية الوحيدة التى تعيش فى النور فلا تحتاج إلى الهروب من التفكير الواضح المستقيم . وإذا هو العقيدة الدينية الوحيدة التى تحتوى نظاما للحياة كلها تملك الحياة أن تعيش فى ظله وأن تنمو وتتقدم وهى فى حدود الدين . وإذا هو العقيدة الوحيدة التى تملك أن تقوم بذاتها حتى حين يتخلى عنها سلطان الدولة وتحاربها قوى الأرض ؛ لأن القوة مودعة فى بنائها وفى كيانها ، فهى بذاتها قادرة على البقاء والتأثير .. وصدق الله العظيم ..

* * *

ثم يتجه الخطاب إلى الذين آمنوا ، ليكشف لهم عن طرف من مسلك الأحبار والرهبان ، ثم ليحذرهم من هذا المسلك وهم يؤمنون :

« يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله . والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم ، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم . هذا ما كنزتم لأنفسكم ، فذوقوا ما كنتم تكنزون » ..

إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل .. بما يبتدعون من أحكام وبما ينشرون من ترهات . فى سبيل المال يحلون الحرام ويحرمون الحلال ، ويحصلون بذلك على نصيب من المال لا حق لهم فيه . والتعبير بأنهم يأكلون الأموال يلقى ظل الجشع . فهم لا يأكلون الأموال ذاتها ، والأموال لا تؤكل ، بل تؤخذ ؛ ولكن التعبير يرسم الجشع النفسى صورة حسية على طريقة القرآن فى التعبير بالتصوير .

إنهم ليأكلون أموال الناس بالباطل . « ويصدون عن سبيل الله » باستغلال ثقة الناس فيهم ، واعتقادهم أنهم أمناء على ما بين أيديهم من كتاب الله . وإن المحترفين من رجال الدين عامة ليقومون بالدور الأول فى الصد عن سبيل الله ، والوقوف فى وجه العقيدة الصحيحة ، لأنها تحرمهم ما يجعلونه لأنفسهم من سلطان ، وما يكسبونه بهذا السلطان الزائف من مال يأكلونه بالباطل فى كل زمان .

وإن الأحبار والرهبان ليكنزون الذهب والفضة ، فليحذر الذين آمنوا أن يكنزوا المال فلا ينفقوه فى سبيل الله . فهذا الكنز سيجازون عليه بالعذاب الأليم .. ثم يأخذ السياق فى رسم مشهد مفزع مثير لهذا العذاب كيف يكون :

« يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم . هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » ..

إن رسم المشهد هكذا فى تفصيل ، وتصوير العملية منذ خطواتها الأولى إلى خطواتها الأخيرة . ليطيل المشهد أمام الخيال .. وهو المقصود ..

« والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » .. ويسكت . وتنتهى الآية على هذا الإجمال والإبهام للعذاب .. ثم يأخذ فى التفصيل .. « يوم يحمى عليها فى نار جهنم » يحمى عليها حتى تصبح صالحة للكى بها . ونحن ننتظر عملية الإحماء والتسخين .. ثم هاهى ذى احمارت وهاهى ذى معدة مهيأة . فليبدأ العذاب الأليم .. هاهى ذى الجباه تكوى .. لقد انتهت عملية الكى فى الجباه فليداروا على الجنوب .: هاهى ذى الجنوب تكوى .. لقد انتهت العملية فليداروا على الظهور .. هاهى ذى الظهور تكوى .. لقد انتهت العملية فليتبعها التأنيب والترذيل : « هذا ما كنزتم لأنفسكم » ها هو ذا بذاته كنزتموه للذة ، فانقلب أداة للعذاب « فذوقوا ما كنتم تكنزون » ذوقوه بذاته ، فهو الذى تذوقون مسه للجباه والجنوب والظهور !!!

ألا إنه لمشهد مفزع ، يعرض فى أناة وتطويل وتفصيل !

ألا وإنه لجزاء الكنز والأثرة واحتجاز فضل الله ورزقه أن ينفق فى سبيل الله ، وأن يعم خيره خلق الله ، وأن يكون عامل نماء وصلاح للحياة ، فلا يتحول المال إلى حجر مرصود أو صنم معبود ! وبخاصة فى معرض الجهاد فى سبيل الله بالنفس والمال . حين يكون الكنز جريمة مباشرة فى حق الدعوة ، وفى حق العقيدة ، وفى حق الأمة المسلمة التى لا تقوم إلا بالجهاد .

« إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ، ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ، وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ * إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ، يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا ، يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا ، لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ ، فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللهُ . زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ ، وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ » .

بعد الأمر بقتال المشركين عند انقضاء عهودهم أو نكثها منهم قبل أجلها ؛ وقتال أهل الكتاب الذين لا يدينون دين الحق ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله عرج السياق على الأشهر الحرم ، التى لا يحل فيها القتال إلا دفاعا أو امتدادا لحرب قامت قبل هذه الأشهر ، وهى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب — عرج عليها ليبطل ما مرد عليه بعض المشركين من النسىء فيها . وقد كانوا يحلون بعض هذه الأشهر المحدودة بأعيانها ويحرمون غيرها ليكملوا عدة الأشهر المحرمة أربعة تبعا لأهوائهم ومصالحهم . وذلك نوع من تحليل ماحرم الله ورسوله ، وسبب من أسباب الأمر بقتال المشركين وأهل الكتاب .

« إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض . منها أربعة حرم . ذلك الدين القيم » ..

وبذلك يرد معيار الزمن ، وتحديد دورانه ، إلى طبيعة الكون التى فطره الله عليها . وإلى أصل الخلقة . خلقة السماوات والأرض . ويشير هذا النص إلى أن هناك دورة زمنية ثابتة ، مقسمة إلى اثنى عشر شهرا . يستدل على ثباتها بثبات عدة الأشهر ؛ فلا تزيد فى دورة وتنقص فى دورة . وأن ذلك فى كتاب الله — أى فى ناموسه الذى أقام عليه نظام هذا الكون . وقد تكون هذه الدورة قمرية كالأشهر العربية فهى ثابتة على نظامها . وقد تكون شمسية فهى ثابتة على

نظامها كذلك ، لا تتخلف ولا تتعرض للنقص والزيادة . لأنهـا تتم وفق قانون ثابت ، هو ذلك الناموس الـكونى الذى أراده الله يوم خلق السماوات والأرض .

هذه الإشارة إلى ثبات الناموس يقدم بها السياق لتحريم الأشهر الحرم وتحديدها ، ليقول : إن هـذا التحديد والتحريم جزء من نواميس الله ثابت كثباتها ، لا يجوز تحريفه بالهوى ، ولا يجوز تحريكه تقديما وتأخيرا ؛ لأنه يشبه دورة الزمن التى تتم بتقدير ثابت ، وفق ناموس لا يتخلف . « ذلك الدين القيم » .. فهذا الدين مطابق للناموس الأصيل ، الذى تقوم به السماوات والأرض ، منذ أن خلق الله السماوات والأرض .

وهكذا يتضمن ذلك النص القصير سلسلة طويلة من الدلولات العجيبة .. يتبع بعضها بعضا ، ويمهد بعضها لبعض ، ويقوى بعضها بعضا . ويشتمل على حقائق كونية يحاول العلم الحديث أن يقررها بطريقته ومحاولاته وتجاربه . ويربط بين نواميس الفطرة فى خلق الـكون وأصول هذا الدين وفرائضه ليقر فى الضمائر والأفـكار عمق جذوره وثبات أسسه ، وقدم أصوله .. كل أولئك فى إحدى وعشرين كلمة تبدو فى ظاهرها عادية بسيطة قريبة مألوفة .

« ذلك الدين القيم . فلا تظلموا فيهن أنفسكم » .. لا تظلموا أنفسكم فى هذه الأشهر الحرم التى يتصل تحريمها بناموس كونى تقوم عليه السماوات والأرض . لا تظلموا أنفسكم بإحلال حرمتها التى أرادها الله لتكون فترة أمان وواحة سلام ؛ فتخالفوا عن إرادة الله . وفى هذه المخالفة ظلم للأنفس بتعريضها لعذاب الله فى الآخرة ، وتعريضها للخوف والقلق فى الأرض ، حين تستحيل كلها جحيما حربية ، لا هدنة فيها ولا سلام .

« وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » .. ذلك فى غير الأشهر الحرم ، مالم يبدأ المشركون بالقتال فيتعين رد الاعتداء فى تلك الأشهر ، لأن الـكف عن القتال من جانب واحد يضعف القوة الخيرة ، المنوط بها حفظ الحرمات ، ووقف القوة الشريرة المعتدية ؛ ويشيع الفساد فى الأرض ، والفوضى فى النواميس . فرد الاعتداء فى هذه الحالة وسيلة لحفظ الأشهر الحرم ، فلا يعتدى عليها ولا تهان .

«وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » .. قاتلوهم جميعا بلا استثناء أحد منهم ولا جماعة ، فهم يقاتلونكم جميعا لا يستثنون منكم أحدا ، ولا يبقون منكم على جماعة . والمعركة فى حقيقتها إنما هى معركة بين الشرك والتوحيد . وبين الـكفر والإيمان وبين الهدى والضلال .

معركة بين معسكرين متميزين لا يمكن أن يقوم بينهما سلام ، ولا أن يتم بينهما اتفاق . لأن الخلاف بينهما ليس عرضيا ولا جزئيا . ليس خلافا على مصالح يمكن التوفيق بينها ، ولا على حدود يمكن أن يعاد تخطيطها . وإن الأمة المسلمة لتخدع عن حقيقة المعركة بينها وبين المشركين — والشرك ألوان وصنوف — إذا هي فهمت أو أفهمت أنها معركة اقتصادية أو معركة قومية ، أو معركة وطنية ، أو معركة استراتيجية .. كلا . إنها قبل كل شيء معركة العقيدة . وهذه لا تجدى فيها أنصاف الحلول . ولا تعالجها الاتفاقات والمناورات . ولا علاج لها إلا بالجهاد والكفاح . الجهاد الشامل والكفاح الكامل . سنة الله التى لا تتخلف وناموسه الذى تقوم عليه السماوات والأرض ، وتقوم عليه العقائد والأديان ، وتقوم عليه الضمائر والقلوب . فى كتاب الله يوم خلق الله السماوات والأرض .

«واعلموا أن الله مع المتقين » .. فالنصر للمتقين الذين يتقون أن ينتهكوا حرمات الله ، وأن يحلوا ماحرم الله ، وأن يحرفوا نواميس الله . فلا يقعد المسلمون عن جهاد المشركين كافة ، ولا يتخوفوا من إثارة الحرب الشاملة . فهى حرب فى سبيل الله ، يقفون فيها عند حدوده ، ويتقون فيها الاعتداء ، ويتوجهون بها إلى الله يراقبونه فى السر والعلانية . فلهم النصر ، لأن الله معهم ، ومن كان الله معه فهو المنصور بلا جدال .

« إنما النسىء زيادة فى الكفر . يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ، ليواطئوا عدة ماحرم الله ، فيحلوا ماحرم الله . زين لهم سوء أعمالهم . والله لا يهدى القوم الكافرين » ..

قال مجاهد — رضى الله عنه — : كان رجل من بنى كنانة يأتى كل عام إلى الموسم على حمار له فيقول : أيها الناس . إنى لا أعاب ولا أجاب ولا مرد لما أقول . إنا قد حرمنا المحرم وأخرنا صفر . ثم يجىء العام المقبل بعده فيقول مثل مقالته ، ويقول : إنا قد حرمنا صفر وأخرنا المحرم فهو قوله : « ليواطئوا عدة ماحرم الله » قال : يعنى الأربعة ، فيحلوا ماحرم الله تأخير هذا الشهر الحرام .

وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم : هذا رجل من بنى كنانة يقال له القلمس ، وكان فى الجاهلية وكانوا فى الجاهلية لا يغير بعضهم على بعض فى الشهر الحرام ، يلقى الرجل قاتل أبيه ولا يمد إليه يده ؛ فلما كان هو قال : خرجوا بنا . قالوا له : هذا المحرم . قال : ننسئه العام . هما العام

صفران . فإذا كان العام القابل قضينا جعلناهما محرمين . قال ففعل ذلك . فلما كان عام قابل قال لا تغزوا فى صفر . حرموه مع المحرم . هما محرمان ..

فهذان قولان فى الآية ، وصورتان من صور النسئ . فى الصورة الأولى يحرم صفر بدل المحرم فالشهور المحرمة أربعة فى العدد ، ولكنها ليست هى التى نص عليها التحريم ، بسبب إحلال شهر المحرم . وفى الصورة الثانية يحرم فى عام ثلاثة أشهر وفى عام آخر خمسة أشهر فالمجموع ثمانية فى عامين بمتوسط أربعة فى العام ولكن حرمة المحرم ضاعت فى أحدهما ، وحل صفر ضاع فى ثانيهما !

وهذه كتلك فى إحلال ماحرم الله ، والمخالفة عن شرع الله . « زيادة فى الكفر » ولجاج فيه ، وضراوة عليه . « يضل به الذين كفروا » ويخدعون بما فيه من تلاعب وتحريف وتأويل . . « زين لهم سوء أعمالهم » فإذا هم يرون السوء حسنا ، ويرون قبح الانحراف جمالا ، ولا يدركون ماهم فيه من ضلال ولجاج فى الكفر بهذه الأعمال . « والله لا يهدى القوم الكافرين » ، الذين ستروا قلوبهم عن الهدى وستروا دلائل الهدى عن قلوبهم . فاستحقوا بذلك أن يتركهم الله لما هم فيه من ظلام وضلال .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ : انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ؟ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ؟ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ * إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ، وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ، وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ، وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ، ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ ، إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ : لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا ؛ فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ، وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ، وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ، وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * انفِرُوا خِفَافًا

وَثِقَالاً ، وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

« لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ ، وَلَٰكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ، وَسَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ، يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * عَفَا اللهُ عَنْكَ . لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ * لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ * إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ * وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً ؛ وَلَٰكِنْ كَرِهَ اللهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ : اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ * لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ، وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ ، وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ، وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ ، وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ ، حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ ، وَظَهَرَ أَمْرُ اللهِ ، وَهُمْ كَارِهُونَ .

« وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي . أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ * إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ، وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ ، وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ * قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * قُلْ : هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ؟ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا ، فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ .

« قُلْ : أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ ، إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ * وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ ، وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ

إلاَّ وَهُمْ كُسَالَى ، وَلَا يُنفِقُونَ إلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ * فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلَادُهُمْ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ * وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ ، وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ * لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ » ..

من هنا يبدأ الحديث عن المنافقين ، الذين اندسوا فى صفوف المسلمين باسم الإسلام ، بعد أن غلب وظهر ، فرأى هؤلاء أن حب السلامة وحب الكسب يقتضيان أن يحنوا رؤوسهم للإسلام ، وأن يكيدوا له داخل الصفوف بعد أن عز عليهم أن يكيدوا له خارج الصفوف .

والنفاق آفة النفوس الضعيفة الملتوية ، التى تضعف عن المواجهة فتلجأ إلى الدسيسة ، وتصعب عليها الاستقامة فتداور وتحاور وتتثنى كالديدان والحيات .

ولقد وقف هؤلاء فى وجه الرسول — صلى الله عليه وسلم — عند مقدمه إلى المدينة ، يكيدون له بكل وسيلة . فلما نصره الله يوم بدر قال عبد الله بن أبى — رأس النفاق — « هـذا أمر قد توجه » — أى بلغ وجهته وانتصر — فدخلوا فى الإسلام ظاهرا وقلوبهم تغلى بكراهية الإسلام والكيد له والتخذيل عنه عند أول فرصة .

فلما بلغ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن الروم قد جمعوا له على أطراف الجزيرة بالشام ، وأن هرقل قد رزق أصحابه رزق سنة ، وانضمت إليه لخم وجذم وعاملة وغسان من قبائل العرب ، وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء .. استنفر الناس إلى قتال الروم . وكان — صلى الله عليه وسلم — قلما يخرج إلى غزوة إلا ورّى بغيرها مكيدة فى الحرب ، إلا ما كان من هـذه الغزوة — غزوة تبوك — فقد صرح بها لبعد الشقة ، وشدة الزمان . إذ كان ذلك فى شدة الحر ، حين طابت الظلال وأينعت الثمار ، وحبب إلى الناس المقام .

عندئذ وجد أولئك المنافقون فرصة للتخذيل . فقالوا : لاتنفروا فى الحر ، وخوفوا الناس بعد الشقة ، وحذروهم شدة بأس الروم . وكان لهذا كله أثر فى تثاقل بعض الناس عن النفرة .

كذلك أخذ المنافقون يستأذنون فى التخلف عن الغزوة معتذرين بالأعذار الكاذبة الواهنة ، كما دبر بعضهم المكائد للنبى — صلى الله عليه وسلم — فى ثنايا الطريق .

ولم يكن بد من هذا الامتحان ليكشف الله المنافقين، ويثبت المؤمنين الصادقين ؛ فالشدائد هى التى تكشف الحقائق وتمحص الظنون .

وسنجد فى هذا الدرس والدروس التالية فى السورة تفصيل هذا الابتلاء وماتلاه فى صفوف المسلمين . .

* * *

« ياأيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض . أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟ فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل . إلاتنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ، ولا تضروه شيئا ، والله على كل شىء قدير . إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار ، إذيقول لصاحبه : لاتحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا ، والله عزيزحكيم . انفروا خفافا وثقالا ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فىسبيل الله . ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » . .

ذلك بدء العتاب للمتخلفين والتهديد بعاقبة التثاقل عن الجهاد فى سبيل الله، والتذكير لهم بما كان من نصر الله لرسوله ، قبل أن يكون معه منهم أحد ، وبقدرته على إعادة هـذا النصر بدونهم،فلاينالهم عندئذ إلا إثم التخلف والتقصير .

« ياأيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض ؟ » إنهاثقلة الأرض ، ومطامع الأرض ، وتصورات الأرض . . ثقلة الخوف على الحياة ، والخوف على المال ، والخوف على اللذائذ والمصالح والمتاع . . ثقلة الدعة والراحة والاستقرار . . ثقلة الذات الفانية والأجل المحدود والهدف القريب . . ثقلة اللحم والدم والتراب . . والتعبير يلقى كل هذه الظلال بجرس ألفاظه « إثاقلتم » وهى بجرسها تمثل الجسم المسترخى الثقيل ، يرفعه الرافعون فى جهد فيسقط

منهم فى ثقل ! ويلقيها بمعنى ألفاظه « إثاقلتم إلى الأرض » ومالها من جاذبية تشد إلى أسفل وتقاوم رفرفة الأرواح وانطلاق الأشواق .

إن النفرة للجهاد فى سبيل الله انطلاق من قيد الأرض ، وارتفاع على ثقلة اللحم والدم ؛ وتحقيق للمعنى العلوى فى الإنسان ، وتغليب لعنصر الشوق المجنح فى كيانه على عنصر القيد والضروة ؛ وتطلع إلى الخلود الممتد ، وخلاص من الفناء المحدود : « أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟ فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل » .

وما يحجم ذو عقيدة فى الله عن النفرة للجهاد فى سبيله ، إلا وفى هذه العقيدة دخل ، وفى إيمان صاحبها بها وهن . لذلك يقول الرسول — صلى الله عليه وسلم — « من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من شعب النفاق » . فالنفاق — وهو دخل فى العقيدة يعوقها عن الصحة والكمال — هو الذى يقعد بمن يزعم أنه على عقيدة عن الجهاد فى سبيل الله خشية الموت أو الفقر ، والآجال بيد الله ، والرزق من عند الله . وما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل .

ومن ثم يتوجه الخطاب إليهم بالتهديد : « إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ، ولا تضروه شيئا ، والله على كل شىء قدير » . .

والخطاب لقوم معينين فى موقف معين . ولكنه عام فى مدلوله لكل ذوى عقيدة فى الله . والعذاب الذى يتهددهم ليس عذاب الآخرة وحده ، فهو كذلك عذاب الدنيا . عذاب الذلة التى تصيب القاعدين عن الجهاد والكفاح ، والغلبة عليهم للأعداء ، والحرمان من الخيرات واستغلالها للمعادين ؛ وهم مع ذلك كله يخسرون من النفوس والأموال أضعاف ما يخسرون فى الكفاح والجهاد ؛ ويقدمون على مذبح الذل أضعاف ما تتطلبه منهم الكرامة لو قدموا لها الفداء . وما من أمة تركت الجهاد إلا ضرب الله عليها الذل ، فدفعت مرغمة صاغرة لأعدائها أضعاف ما كان يتطلبه منها كفاح الأعداء . .

« ويستبدل قوما غيركم » يقومون على العقيدة ، ويؤدون ثمن العزة ، ويستعلون على أعداء الله « ولا تضروه شيئا » ولا يقام لكم وزن ، ولا تقدمون أو تؤخرون فى الحساب ! « والله على كل شىء قدير » لا يعجزه أن يذهب بكم ، ويستبدل قوما غيركم ، ويغفلكم من التقدير والحساب !

إن الاستعلاء على ثقلة الأرض وعلى ضعف النفس ، إثبات للوجود الإنسانى الكريم . فهو حياة بالمعنى العلوى للحياة . وإن التثاقل إلى الأرض والاستسلام للخوف إعدام للوجود الإنسانى الكريم . فهو فناء فى حساب الروح المميزة للإنسان .

ويضرب الله لهم المثـل من الواقع التاريخى الذى يعلمونه ، على نصرة الله لرسوله بلا عون منهم ولا ولاء ، والنصر من عند الله يؤتيه من يشاء :

« إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ، ثانى اثنين إذ هما فى الغار . إذ يقول لصاحبه : لا تحزن إن الله معنا . فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم » ..

ذلك حين ضاقت قريش بمحمد ذرعا ، كما تضيق القوة الغاشمة دائما بكلمة الحق ، لا تملك لها دفعا، ولا تطيق عليها صبرا ، فائتمرت به ، وقررت أن تتخلص منه ؛ فأطلعه الله على ما ائتمرت ، وأوحى إليه بالخروج ، فخرج وحيدا إلا من صاحبه الصديق ، لا جيش ولا عـدة ، وأعداؤه كثر ، وقوتهم إلى قوته ظاهرة . والسياق يرسم مشهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصاحبه « إذ هما فى الغار » والقوم على إثرهما يتعقبون ، والصديق ـ رضى الله عنه ـ يجزع ـ لا على نفسه ولكن على صاحبه ـ أن يطلعوا عليهما فيخلصوا إلى صاحبه الحبيب ، يقول له : لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه . والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد أنزل الله سكينته على قلبه ، يهدىء من روعه ويطمئن من قلبه فيقول له : « يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ »

ثم ماذا كانت العاقبة ، والقوة المادية كلها فى جانب ، والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع صاحبه منها مجرد ؟ كان النصر المؤزر من عند الله بجنود لم يرها الناس . وكانت الهزيمـة للذين كفروا والذل والصغار « وجعل كلمة الذين كفروا السفلى » وظلت كلمـة الله فى مكانها العالى منتصرة قوية نافذة « وكلمة الله هى العليا » ..

وقد قرىء « وكلمة الله » بالنصب . ولـكن القراءة بالرفع أقوى فى المعنى . لأنها تعطى معنى التقرير . فكلمة الله هى العليا طبيعة وأصلا ، بدون تصيير متعلق بحادثة معينـة . أما الجنود التى أيد الله بها رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد سبق الحديث عنها . والله « عزيز » لا يذل أولياؤه « حكيم » يقدر النصر فى حينه لمن يستحقه .

ذلك مثل على نصرة الله لرسوله ولـكلمته ؛ والله قادر على أن يعيده على أيدى قوم آخرين غير الذين يتثاقلون ويتباطأون . وهـو مثل من الواقع إن كانوا فى حاجة بعد قول الله إلى دليل !

وفى ظلال هذا المثل الواقع المؤثر يدعوهم إلى النفرة العامة ، لا يعوقهم معوق ، ولا يقعدبهم

طارىء ، إن كانوا يريدون لأنفسهم الخير فى هذه الأرض وفى الدار الآخرة :

« انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله . ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » . .

انفروا فى كل حال ، وجاهدوا بالنفوس والأموال ، ولا تتلمسوا الحجج والمعاذير ، ولا تخضعوا للعوائق والتعلات . « ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » أسباب الخير الصحيح .

وأدرك المؤمنون المخلصون هذا الخير ، فنفروا والعوائق فى طريقهم ، والأعذار حاضرة لو أرادوا التمسك بالأعذار . ففتح الله عليهم القلوب والأرضين ، وأعز بهم كلمة الله ، وأعزهم بكلمة الله ، وحقق على أيديهم مايعد خارقة فى تاريخ الفتوح .

قرأ أبو طلحة — رضى الله عنه — سورة براءة فأتى على هذه الآية فقال : أرى ربنا استنفرنا شيوخا وشبانا ، جهزونى يابنى . فقال بنوه : يرحمك الله قد غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم حتى مات ، ومع أبى بكر حتى مات ، ومع عمر حتى مات ، فنحن نغزو عنك . فأبى ، فركب البحر فمات ، فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد تسعة أيام ، فلم يتغير ، فدفنوه بها .

وروى ابن جرير — بأسناده — عن أبى راشد الحرانى قال : « وافيت المقداد بن الأسود فارس رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — جالسا على تابوت من توابيت الصيارفة ، وقد فضل عنها من عظمه ، يريد الغزو ؟ فقلت له قد أعذر الله إليك . فقال : أتت علينا سورة البعوث [1] « انفروا خفافا وثقالا » .

وروى كذلك — بأسناده — عن حيان بن زيد الشرعبى قال : نفرنا مع صفوان بن عمرو ، وكان واليا على حمص قبل الأفسوس إلى الجراجمة فرأيت شيخا كبيرا هما ، قدسقط حاجباه على عينيه من أهل دمشق على راحلته فيمن أغار ، فأقبلت إليه فقلت : ياعم لقد أعذر الله إليك . قال : فرفع حاجبيه فقال : ياابن أخى استنفرنا الله ، خفافا وثقالا . ألا إنه من يحبه الله يبتليه ، ثم يعيده فيبقيه . وإنما يبتلى الله من عباده من شكر وصبر وذكر ، ولم يعبد إلا الله عزوجل .

---

(١) وردت صفات كثيرة لسورة براءة فسميت « الفاضحة » لما فضحته من سرائر المنافقين . ومنها « المنفرة » و « المبعثرة » و « المثيرة » و « البعوث » بفتح الباء لتنفيرها وتعبيرها عما فى القلوب وبعثرته وبعثها للمجاهدين . وكذلك المدمدمة والمخزية والمنكلة والمشردة . .

وبمثل هذه الروح قامت عزة الإسلام وعزة المسلمين . وبتراخيها فى نفوسهم تراخت دولتهم ، وركبهم الذل ، وساروا فى ذيل القافلة تابعين، وقد أرادهم الإسلام قادة متبوعين . فمن شاء العزة فذلك هو الطريق . . .

***

ثم يستعرض موقف جماعة من المنافقين ، الذين استأذنوا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى التخلف ، فأذن لهم . يستعرض موقفهم ، فيرسم صورة زرية لسقوط الهمة ، وضعف العزيمة ، وسوء الطوية، والعجز عن المواجهة ؛ ويعتب على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن أذن لهم قبل أن ينكشفوا على حقيقتهم ، ويتخلفوا جهرا وعلانية :

« لوكان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ، ولكن بعدت عليهم الشقة ؛ وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم، يهلكون أنفسهم ، والله يعلم إنهم لكاذبون . عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين ؟ لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين . إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون ؛ ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ، ولكن كره الله انبعاثهم ، فثبطهم ، وقيل : اقعدوا مع القاعدين . لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة ، وفيكم سماعون لهم ، والله عليم بالظالمين . لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون » . .

لوكان الأمر أمر عرض قريب من أعراض هذه الأرض ، وأمر سفر قصير الأمد مأمون العاقبة لاتبعوك ! ولكنها الشقة البعيدة التى تتقاصر دونها الهمم الساقطة والعزائم الضعيفة. ولكنه الجهد الخطر الذى تجزع منه الأرواح الهزيلة والقلوب المنخوبة . ولكنه الأفق العالى الذى تتخاذل دونه النفوس الصغيرة ، والبنية المهزولة .

وإنه لنموذج مكرور فى البشرية ذلك الذى ترسمه تلك الكلمات الخالدة : « لوكان عرضا قريبا وسفرا قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة » فكثيرون هم أولئك الذين يتهاوون فى الطريق الصاعد إلى الآفاق الكريمة . كثيرون أولئك الذين يجهدون لطول الطريق فيتخلفون

عن الركب ويميلون إلى عرض تافه أو مطلب رخيص . كثيرون تعرفهم البشرية فى كل زمان وفى كل مكان ، فما هى قلة عارضة ، إنما هى النموذج المكرور . وإنهم ليعيشون على حاشية الحياة ، وإن خيل إليهم أنهم بلغوا منافع ونالوا مطالب واجتنبوا أداء الثمن الغالى ، فالثمن القليل لايشترى سوى التافه الرخيص .

«وسيحلفون بالله لواستطعنا لخرجنا معكم» .. فهو الكذب المصاحب للضعف أبدا. ومايكذب إلا الضعفاء . أجل مايكذب إلا ضعيف ولوبدا فى صورة الأقوياء الجبارين فى بعض الأحايين . فالقوى يواجه والضعيف يداور . وما تتخلف هذه القاعدة فى موقف من المواقف ولا فى يوم من الأيام .. « يهلكون أنفسهم » بهذا الحلف وبهذا الكذب ، الذى يخيل إليهم أنه سبيل النجاة عند الناس ، والله يعلم الحق ، ويكشفه للناس ، فيهلك الكاذب فى الدنيا بكذبه ، ويهلك فى الآخرة يوم لايجدى النكران . « والله يعلم إنهم لكاذبون » ..

« عفا الله عنك . لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين » .. إنه لطف الله برسوله ، فهو يعجل له بالعفو قبل العتاب . فلقد تدارى المتخلفون خلف إذن الرسول — صلى الله عليه وسلم — لهم بالقعود حين قدموا له المعاذير . وقبل أن ينكشف صدقهم من كذبهم فى هذه المعاذير . وكانوا سيتخلفون عن الركب حتى ولولم يأذن لهم . فعندئذ تتكشف حقيقتهم، ويسقط عنهم ثوب النفاق ، ويظهرون للناس على طبيعتهم ، ولا يتوارون خلف إذن الرسول .

وإذ لم يكن ذلك فإن القرآن يتولى كشفهم ، ويقرر القواعد التى يمتاز بها المؤمنون والمنافقون :

« لايستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخرأن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين . إنما يستأذنك الذين لايؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم ، فهم فى ريبهم يترددون » ..

وهذه هى القاعدة التى لا تخطىء . فالذين يؤمنون بالله ، ويعتقدون بيوم الجزاء ، لاينتظرون أن يؤذن لهم فى أداء فريضة الجهاد — وهى فريضة — ولا يتلكأون فى تلبية داعى النفرة فى سبيل الله بالأموال والأرواح ، بل يسارعون إليها خفافا وثقالا كما أمرهم الله ، طاعة لأمره ، ويقينا بلقائه ، وثقة بجزائه ، وابتغاء لرضاه. وإنهم ليتطوعون تطوعا فلا يحتاجون إلى من

يستحثهم ، فضلا عن الإذن لهم . إنما يستأذن أولئك الذين خلت قلوبهم من اليقين فهم يتلكأون ويتلمسون المعاذير ، لعل عائقا من العوائق يحول بينهم وبين النهوض بتكاليف العقيدة التي يتظاهرون بها ، وهم يرتابون فيها ويترددون .

إن الطريق إلى الله واضحة مستقيمة ، فما يتردد ويتلكأ إلا الذي لا يعرف الطريق ، أو الذي يعرفها ويتنكبها اتقاء لمتاعب الطريق !

ولقد كان أولئك المتخلفون ذوى قدرة على الخروج ، لديهم وسائله ، وعندهم عدته : « ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة » وقد كان فيهم عبدالله بن أبى بن سلول ، وكان فيهم الجد ابن قيس ، وكانوا أشرافا فى قومهم أثرياء . « ولكن كره الله انبعاثهم » لما يعلمه من طبيعتهم ونفاقهم ، ونواياهم المنطوية على السوء للمسلمين ـ كما سيجىء ـ « فثبطهم » ولم يبعث فيهم الهمة للخروج ، « وقيل : اقعدوا مع القاعدين » وتخلفوا مع العجائز والنساء والأطفال الذين لا يستطيعون الغزو ، ولا ينبعثون للجهاد . فهذا مكانكم اللائق بالهمم الساقطة والقلوب المرتابة والنفوس الخاوية من اليقين .

وكان ذلك خيرا للدعوة وخيرا للمسلمين : « لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة ، وفيكم سماعون لهم ، والله عليم بالظالمين » .. والقلوب الحائرة تبث الخور والضعف فى الصفوف ، والنفوس الخائنة خطر على الجيوش ؛ ولو خرج أولئك المنافقون مازادوا المسلمين قوة بخروجهم بل لزادوهم اضطرابا وفوضى . ولأسرعوا بينهم بالوقيعة والفتنة والتفرقة والتخذيل . وفى المسلمين من يسمع لهم يومئذ نظرا إلى وجاهتهم فى قومهم ، وللجاه والثراء بريقهما فى النفوس والعيون . ولكن الله الذى يرعى دعوته ويكلأ رجالها المخلصين ، كفى المؤمنين الفتنة ، فترك المنافقين المتخاذلين قاعدين « والله عليم بالظالمين » .

وإن ماضيهم ليشهد بدخل نفوسهم ، وسوء طويتهم ، فلقد وقفوا فى وجه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبذلوا مافى طوقهم ، حتى غلبوا على أمرهم فاستسلموا وفى القلب مافيه : «لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون» .. وكان ذلك عند مقدم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المدينة ، قبل أن يظهره الله على أعدائه . ثم جاء الحق وانتصرت كلمة الله فخنوا لها رؤوسهم وهم كارهون ، وظلوا يتربصون الدوائر بالإسلام والمسلمين .

* * *

ويعرض السياق نموذجا من معاذيرهم المفتراة ؛ ثم يكشف عما تنطوى عليه صدورهم من التربص بالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمين :

«ومنهم من يقول: ائذن لى ولا تفتنى . ألا فى الفتنة سقطوا ،وإن جهنم لمحيطة بالكافرين . إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا : قد أخذنا أمرنا من قبل ، ويتولوا وهم فرحون . قل : لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون . قل : هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ؟ ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا . فتربصوا إنا معكم متربصون » .

روى محمد بن إسحاق عن الزهرى ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبى بكر وعاصم بن قتادة قالوا : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذات يوم ، وهو فى جهازه (أى لغزوة تبوك) للجد بن قيس أخى بنى سلمة : « هل لك ياجد فى جلاد بنى الأصفر ؟ » (يعنى الروم) فقال : يارسول الله أو تأذن لى ولا تفتنى ؟ فوالله لقد عرف قومى مارجل أشد عجبا بالنساء منى ، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر ألا أصبر عنهن . فأعرض عنه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال : قد أذنت لك » ففى الجد بن قيس نزلت هذه الآية .

بمثل هذه المعاذير كان المنافقون يعتذرون. والرد عليهم: « ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين » . . والتعبير يرسم مشهدا كأن الفتنة فيه هاوية يسقط فيها المفتونون ؛ وكأن جهنم من ورائهم تحيط بهم ، وتأخذ عليهم المنافذ والمتجهات فلا يفلتون . كناية عن مقارفتهم الخطيئة كاملة وعن انتظار العقاب عليها حتما ، جزاء الكذب والتخلف والهبوط إلى هذا المستوى المنحط من المعاذير . وتقرير لكفرهم وإن كانوا يتظاهرون بالإسلام وهم فيه منافقون .

إنهم لا يريدون بالرسول خيرا ولا بالمسلمين ، وإنهم ليسوؤهم أن يجد الرسول والمسلمون خيرا : « إن تصبك حسنة تسؤهم » وإنهم ليفرحون لما يحل بالمسلمين من مصائب ، ومايتزل بهم من مشقة «وإن تصبك مصيبة يقولوا : قد أخذنا أمرنا من قبل » واحتطنا ألا نصاب مع المسلمين بشر ، وتخلفنا عن الكفاح والغزو « ويتولوا وهم فرحون » بالنجاة وبما أصاب المسلمين من بلاء .

ذلك أنهم يأخذون بظواهر الأمور ، ويحسبون البلاء شرا فى كل حال ، ويظنون أنهم محققون لأنفسهم الخير بالتخلف والقعود . وقد خلت قلوبهم من التسليم لله ، والرضى بقدره،

واعتقاد الخير فيه . والمسلم الصادق يبذل جهده ويقدم لا يخشى ، اعتقادا بأن مايصيبه من خير أو شر معقود بإرادة الله ، وأن الله ناصر له ومعين :

« قل : لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون » . .

والله قد كتب للمؤمنين النصر ، ووعدهم به فى النهاية ، فمهما يصبهم من شدة ، ومهما يلاقوا من ابتلاء ، فهو إعداد للنصر الموعود ، لينالة المؤمنون عن بينة ، وبعد تمحيص ، وبوسائله التى اقتضتها سنة الله ، نصرا عزيزا لا رخيصا ، وعزة تحميها نفوس عزيزة مستعدة لكل ابتلاء ، صابرة على كل تضحية . والله هو الناصر وهو المعين « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » ..

والاعتقاد بقدر الله ، والتوكل الكامل على الله ، لا ينفيان اتخاذ العدة بما فى الطوق . فذلك أمر الله الصريح : « وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة ... » وما يتكل على الله حق الاتكال من لا ينفذ أمر الله ، ومن لا يأخذ بالأسباب ، ومن لا يدرك سنة الله الجارية التى لا تحابى أحدا ، ولا تراعى خاطر إنسان !

على أن المؤمن أمره كله خير . سواء نال النصر أو نال الشهادة . والكافر أمره كله شر سواء أصابه عذاب الله المباشر أو على أيدى المؤمنين :

« قل : هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ، ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا . فتربصوا إنا معكم متربصون » ..

فماذا يتربص المنافقون بالمؤمنين ؟ إنها الحسنى على كل حال . النصر الذى تعلو به كلمة الله ، فهو جزاؤهم فى هذه الأرض. أو الشهادة فى سبيل الحق عليا الدرجات عند الله . وماذا يتربص المؤمنون بالمنافقين ؟ إنه عذاب الله يأخذهم كما أخذ من قبلهم من المكذبين ؛ أو يبطش المؤمنين بهم كما وقع من قبل للمشركين .. «فتربصوا إنا معكم متربصون» والعاقبة معروفة .. والعاقبة للمؤمنين.

***

ولقد كان بعض هؤلاء المعتذرين المتخلفين المتربصين ، قد عرض ماله ، وهو يعتذر عن الجهاد ، ذلك ليمسك العصا من الوسط على طريقة المنافقين فى كل زمان ومكان . فرد الله عليهم مناورتهم ، وكلف رسوله أن يعلن أن إنفاقهم غير مقبول عند الله ، لأنهم إنما ينفقون عن رياء

وخوف ، لا عن إيمان وثقة ، وسواء بذلوه عن رضى منهم بوصفه ذريعة يخدعون بها المسلمين ، أو عن كره خوفا من انكشاف أمرهم ، فهو فى الحالتين مردود ، لا ثواب له ولا يحسب لهم عند الله :

« قل : أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم ، إنكم كنتم قوما فاسقين . وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ، ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ، ولا ينفقون إلا وهم كارهون » .

إنها صورة المنافقين فى كل آن . خوف ومداراة ، وقلب منحرف وضمير مدخول . ومظاهر خالية من الروح ، وتظاهر بغير مايكنه الضمير .

والتعبير القرآنى الدقيق « ولا يأتون الصلاة » فهم يأتونها مظهرا بلا حقيقة ، ولا يقيمونها إقامة واستقامة . يأتونها كسالى لأن الباعث عليها لا ينبثق من أعماق الضمير ، إنما يدفعون إليها دفعا ، فيحسون أنهم عليها مسخرون ! وكذلك ينفقون ماينفقون كارهين مكرهين .

وما كان الله ليقبل هذه الحركات الظاهرة التى لا تحدو إليها عقيدة ، ولا يصاحبها شعور دافع . فالباعث هو عمدة العمل ، والنية هى مقياسه الصحيح .

ولقد كان هؤلاء المنفقون وهم كارهون ذوى مال وذوى أولاد ، وذوى جاه فى قومهم وشرف . ولكن هذا كله ليس بشىء عند الله . وكذلك يجب ألا يكون شيئا عند الرسول والمؤمنين . فما هى بنعمة يسبغها الله عليهم ليهنأوا بها ، إنما هى الفتنة يسوقها الله إليهم ويعذبهم بها .

« فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم ، إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا ، وتزهق أنفسهم وهم كافرون » ..

إن الأموال والأولاد قد تكون نعمة يسبغها الله على عبد من عباده ، حين يوفقه إلى الشكر على النعمة ، والإصلاح بها فى الأرض ، والتوجه بها إلى الله ، فإذا هو مطمئن الضمير ، ساكن النفس ، واثق من المصير . كلما أنفق احتسب وشعر أنه قدم لنفسه ذخرا ، وكلما أصيب فى ماله أو بنيه احتسب ، فإذا السكينة النفسية تغمره . والأمل فى الله يسرى عنه .. وقد تكون نقمة يصيب الله بها عبدا من عباده ، لأنه يعلم من أمره الفساد والدخل ، فإذا القلق على الأموال والأولاد يحول حياته جحيما ، وإذا الحرص عليها يؤرقه ويتلف أعصابه ، وإذا هو ينفق المال

حين ينفقه فيما يتلفه ويعود عليه بالأذى ، وإذا هو يشقى بأبنائه إذا مرضوا ويشقى بهم إذا صحوا . وكم من الناس يعذبون بأبنائهم لسبب من الأسباب .

وهؤلاء الذين كانوا على عهد الرسول — صلى الله عليه وسلم — وأمثالهم فى كل زمان ، يملكون الأموال ويرزقون الأولاد ، يعجب الناس ظاهرها ، وهى لهم عذاب على نحو من الأنحاء . عذاب فى الحياة الدنيا ، وهم — بما علم الله من دخيلتهم — صائرون إلى الهاوية . هاوية الموت على الكفر والعياذ بالله من هذا المصير .

والتعبير « وتزهق أنفسهم » يلقى ظل الفرار لهذه النفوس أو الهلاك . ظلا مزعجا لاهدوء فيه ولا اطمئنان ، فيتسق هذا الظل مع ظل العذاب فى الحياة الدنيا بالأموال والأولاد . فهو القلق والكرب فى الدنيا والآخرة . وما يحسد أحد على هذه المظاهر التى تحمل فى طياتها البلاء!

***

ولقد كان أولئك المنافقون يدسون أنفسهم فى الصف ، لا عن إيمان واعتقاد ، ولكن عن خوف وتقية ، وعن طمع ورهب . ثم يحلفون أنهم من المسلمين ، أسلموا اقتناعا ، وآمنوا اعتقادا . . فهذه السورة تفضحهم وتكشفهم على حقيقتهم ، فهى الفاضحة التى تكشف رداء المداورة وتمزق ثوب النفاق :

« ويحلفون بالله إنهم لمنكم ، وماهم منكم ولكنهم قوم يفرقون . لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون » ..

إنهم جبناء . والتعبير يرسم لهذا الجبن مشهدا ويجسمه فى حركة . حركة النفس والقلب ، يبرزها فى حركة جسد وعيان . « لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون » فهم متطلعون أبدا إلى مخبأ يحتمون به ، ويأمنون فيه . حصنا أو مغارة أو نفقا . إنهم مذعورون مطاردون . يطاردهم الفزع الداخلى والجبن الروحى . ومن هنا « يحلفون بالله إنهم لمنكم » بكل أدوات التوكيد ، ليداروا مافى نفوسهم ، وليتقوا انكشاف طويتهم ، وليأمنوا على ذواتهم .. وإنها لصورة زرية للجبن والخوف والملق والرياء . لا يرسمها إلا هذا الأسلوب القرآنى العجيب . الذى يبرز حركات النفس شاخصة للحس على طريقة التصوير الفنى الموحى العميق .

« وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ، فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ ، وَقَالُوا : حَسْبُنَا اللهُ ، سَيُؤْتِينَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ ، إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ * إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ، وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ، وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ، وَفِي الرِّقَابِ ، وَالْغَارِمِينَ ، وَفِي سَبِيلِ اللهِ ، وَابْنِ السَّبِيلِ ، فَرِيضَةً مِنَ اللهِ ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

« وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ، وَيَقُولُونَ : هُوَ أُذُنٌ . قُلْ : أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ ، يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ؛ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ ، وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللهَ وَرَسُولَهُ ، فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ، ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ * يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ . قُلِ : اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ * وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ : إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ . قُلْ : أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ؟ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ، إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ .

« الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ ، وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ، نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ ، إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * وَعَدَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ، هِيَ حَسْبُهُمْ ، وَلَعَنَهُمُ اللهُ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ * كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً ، وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا ؛ فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ ، فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ ، وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ، أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا

وَالآخِرَةِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ * أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ، وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالمُؤْتَفِكَاتِ ، أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالبَيِّنَاتِ ، فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

« وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ، وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ، وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ ، أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ ، إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ، خَالِدِينَ فِيهَا ، وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ، وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ العَظِيمُ .

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ، وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا ؛ وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ ، وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ ، وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ؛ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ؛ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ ، وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ » ..

يستمر سياق السورة فى الحديث عن المنافقين ، وما يند منهم من أقوال وأعمال ، تكشف عن نواياهم التى يحاولون سترها ، فلا يستطيعون . فمنهم من يلمز النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى توزيع الصدقات ، ويتهم عدالته فى التوزيع ، وهو المعصوم ذو الخلق العظيم ، ومنهم من يقول: هو أذن يستمع لكل قائل ، ويصدق كل مايقال ، وهوالنبى الفطن البصير ، المفكر المدبر الحكيم . ومنهم من يتخفى بالقولة الفاجرة الكافرة ، حتى إذا انكشف أمره استعان بالكذب والحلف ليبرىء نفسه من تبعة ماقال . ومنهم من يخشى أن ينزل الله على رسوله سورة تفضح نفاقهم وتكشفهم للمسلمين .

ويعقب السياق على استعراض هذه الصنوف من المنافقين ، ببيان طبيعة النفاق والمنافقين ، وربط بينهم وبين الكفار الذين خلوا من قبل ، فأهلكهم الله بعد ما استمتعوا بنصيبهم إلى أجل معلوم . ذلك ليكشف عن الفوارق بين طبيعتهم هذه وطبيعة المؤمنين الصادقين ، الذين يخلصون العقيدة ولا ينافقون .

ثم ينتهى هذا الدرس بأمر النبى — صلى الله عليه وسلم — أن يجاهد الكفار والمنافقين ويغلظ عليهم ، ولا تأخذه فى شأنهم هوادة بعد ما تكشفت الحجب عنهم ، فبدوا على حقيقتهم سافرين . إلا أن يتوبوا إلى ربهم ويخلصوا له الدين .

***

« ومنهم من يلمزك فى الصدقات ، فإن أعطوا منها رضوا ، وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون . ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله ، وقالوا : حسبنا الله ، سيؤتينا الله من فضله ورسوله ، إنا إلى الله راغبون . إنما الصدقات للفقراء والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب ، والغارمين ، وفى سبيل الله ، وابن السبيل . فريضة من الله والله عليم حكيم » ..

من المنافقين من يغمزك بالقول ، ويعيب عدالتك فى توزيع الصدقات ، ويدعى أنك تحابى فى قسمتها . وهم لا يقولون ذلك غضبا للعدل ، ولا حماسة للحق ، ولا غيرة على الدين ، إنما يقولونه لحساب ذواتهم وأطماعهم ، وحماسة لمنفعتهم وأنانيتهم « فإن أعطوا منها رضوا » ولم يبالوا الحق والعدل والدين « وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون » !

وقد وردت روايات متعددة عن سبب نزول الآية ، تقص حوادث معينة عن أشخاص بأعيانهم لمزوا الرسول — صلى الله عليه وسلم — فى عدالة التوزيع .

روى البخارى والنسائى عن أبى سعيد الخدرى — رضى الله عنه — قال: بينما النبى — صلى الله عليه وسلم — يقسم قسما إذ جاءه ذو الخويصرة التميمى ، فقال اعدل يارسول الله . فقال : « ويلك ! ومن يعدل إذا لم أعدل ؟ » فقال عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — ائذن لى فأضرب عنقه . فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — « دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ... » قال أبو سعيد ، فنزلت فيهم : « ومنهم من يلمزك فى الصدقات » .

وروى ابن مردويه عن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال : « لما قسم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ غنائم حنين سمعت رجلا يقول : إن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله . فأتيت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فذكرت له ذلك فقال : « رحمة الله على موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر » . ونزل « ومنهم من يلمزك فى الصدقات » .

وروى سنيد وابن جرير عن داود بن أبى عاصم قال : أتى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بصدقة فقسمها هاهنا وهاهنا حتى ذهبت ، ورآه رجل من الأنصار فقال : ما هذا بالعدل . فنزلت هـذه الآية .

وقال قتادة فى قوله : « ومنهم من يلمزك فى الصدقات » يقول : ومنهم من يطعن عليك فى الصدقات . وذكر لنا أن رجلا من أهل البادية حديث عهد بأعرابية أتى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يقسم ذهبا وفضة ، فقال : يا محمد والله لئن كان الله أمرك أن تعدل ما عدلت ، فقال نبى الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « ويلك فمن ذا الذى يعدل عليك بعدى ؟ » . .

وعلى أية حال فالنص القرآنى يقرر أن القولة قولة فريق من المنـافقين . يقولونها لا غيرة على الدين ، ولـكن غضبا على حظ أنفسهم ، وغيظا أن لم يكن لهم نصيب . . وهى آية نفاقهم الصريحة ، فما يشك فى خلق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مؤمن بهذا الدين ، وهو المعروف حتى قبل الرسالة بأنه الصادق الأمين . والعدل فرع من أمانات الله التى ناطها بالمؤمنين فضلا على نبى المؤمنـين .

وبهذه المناسبة يرسم السياق الطريق اللائق بالمؤمنين الصادقى الإيمان : « ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله ، وقالوا : حسبنا الله ، سيؤتينا الله من فضـله ورسوله . إنا إلى الله راغبون » .. فهذا هو أدب النفس وأدب اللسان ، وأدب الإيمـان : الرضى بقسمة الله ورسوله ، رضى التسليم والاقتناع ، لا رضى القهر والغلب . والاكتفاء بالله ، والله كاف عبده . والرجاء فى فضل الله ورسوله . والرغبة فى الله خالصة من كل كسب مادى ، ومن كل طمع دنيوى .. ذلك أدب الإيمـان الصحيح الذى ينضح به قلب المؤمن . وإن كانت لا تعرفه قلوب المنافقين ، الذين لم تخالط بشاشة الإيمان أرواحهم ، ولم يشرق فى قلوبهم نور اليقين .

وبعد بيان هذا الأدب اللائق فى حق الله وحق رسوله ، تطوعا ورضى وإسلاما ، يقرر أن الأمر ـ

مع ذلك — ليس أمر الرسول ؛ إنما هو أمر الله وفريضته وقسمته ، وماالرسول فيها إلا منفذ للفريضة المقسومة من رب العالمين . فهذه الصدقات — أى الزكاة — تؤخذ من الأغنياء فريضة من الله ، وترد على الفقراء فريضة من الله . وهى محصورة فى طوائف من الناس يعينهم القرآن ، وليست متروكة لاختيار أحد ، حتى ولا اختيار الرسول :

« إنما الصدقات للفقراء والمساكين ... فريضة من الله ، والله عليم حكيم » ..

وبذلك تأخذ الزكاة مكانها فى شريعة الله ، ومكانها فى النظام الإسلامى ، لاتطوعا ولا تفضلا ممن فرضت عليهم. فهى فريضة محتمة. ولا منحة ولا جزافا من القاسم الموزع . فهى فريضة معلومة. إنها إحدى ضرائب الإسلام تجمعها الدولة المسلمة بنظام معين لتؤدى بها خدمة اجتماعية محددة . وهى ليست إحسانا من المعطى وليست شحاذة من الآخذ . . كلا فما قام النظام الاجتماعى فى الإسلام على التسول ، ولن يقوم .

إن قوام الحياة فى النظام الإسلامى هو العمل — بكل صنوفه وألوانه — وعلى الدولة المسلمة أن توفر العمل لكل قادر عليه ، وأن تمكنه منه بالإعداد له ، وبتوفير وسائله ، وبضمان الجزاء الأوفى عليه . وليس للقادرين على العمل من حق فى الزكاة ، فالزكاة ضريبة تكافل اجتماعى بين القادرين والعاجزين ، تنظمها الدولة وتتولاها فى الجمع والتوزيع ، متى قام المجتمع على أساس الإسلام الصحيح .

عن ابن عمر — رضى الله عنهما — قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « لا تحل الصدقة لغنى ولا لذى مرة سوى (١) » .

وعن عبد الله بن عدى بن الخيار أن رجلين أخبراه أنهما أتيا النبى — صلى الله عليه وسلم — يسألانه من الصدقة ، فقلب فيهما البصر ، فرآهما جلدين ، فقال : « إن شئتما أعطيتكما . ولا حظ فيها لغنى ولا لقوى مكتسب (٢) » .

إن الزكاة فرع من فروع نظام التكافل الاجتماعى فى الإسلام . وهذا النظام أشمل وأوسع كثيرا من الزكاة ، لأنه يتمثل فى عدة خطوط تشمل فروع الحياة كلها ، ونواحى الارتباطات

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذى . (٢) رواه أحمد وأبو داود والنسائى .

البشرية بأكملها ، والزكاة خط واحد من هـذه الخطوط [١] وهى تشمل مايسمى الآن : بالتأمين الاجتماعى وبالضمان الاجتماعى مجتمعين . والفرق بين التأمين والضمان ، أن كل فرد فى التأمين يؤدى قسطا من دخله ، فى نظير تأمينه عند عجزه الدائم أو المؤقت . أما فى الضمان فالدولة هى التى تقوم بهذا من ميزانيتها العامة ، بدون أن يشترك أفراد بذواتهم بأداء قسط معين .

والزكاة تجمع بنسبة العشر ونصف العشر وربع العشر من أصل المال حسب أنواع الأموال .وهى تجمع من كل من يملك حوالى عشرين جنيها فائضة عن حاجته يحول عليها الحول. وبذلك يشترك فى حصيلتها معظم أفراد الأمة . ثم تنفق فى المصارف التى بينتها الآية هنا ، وأول المستحق لها هم الفقراء والمساكين . والفقراء هم الذين يجدون دون الكفاية ، والمساكين مثلهم ولكنهم هم الذين يتجملون فلا يبدون حاجتهم ولا يسألون .

وإن كثيرا ممن يؤدون الزكاة فى عام ، قد يكونون فى العام التالى مستحقين للزكاة . بنقص مافى أيديهم عن الوفاء بحاجاتهم. فهى من هذه الناحية تأمين اجتماعى . وبعضهم يكون لم يؤد شيئا فى حصيلة الزكاة ولكنه يستحقها . فهى من هذه الناحية ضمان اجتماعى .

فالزكاة نظام تأمين وضمان اجتماعى لطوائف معينة فى الأمة ؛ وليست أساسا النظام الاقتصادى فى الدولة الإسلامية ، وليست كذلك قواما للحياة العامة . إنما قوام الحياة العمل وارتباطاته — كما سبق — بتفصيل ليس هذا مكانه . فنحن هنا فى ظلال القرآن ، لا نتعدى ظلال النص إلى بحوث مفصلة لها مجالها الخاص .

« إنما الصدقات للفقراء والمساكين » .. وقد سبق بيانهما .

« والعاملين عليها » .. أى الذين يقومون على تحصيلها — مالم تخصص لهم رواتب من بيت المال العام (أى خزانة الدولة ، وحصيلة الزكاة لا تدخل هذه الخزانة لأنها ضريبة اجتماعية خاصة بشأن خاص) .

« والمؤلفة قلوبهم » .. وهم طوائف منهم الذين دخلوا حديثا فى الإسلام ويراد تثبيتهم

---

(١) يراجع فصل التكافل الاجتماعى فى كتاب : العدالة الاجتماعية . وفى كتاب :دراسات إسلامية للمؤلف

عليه . ومنهم الذين يرجى أن تتألف قلوبهم فيسلموا . ومنهم الذين أسلموا وثبتوا ويرجى تأليف قلوب أمثالهم فى قومهم ليثوبوا إلى الإسلام حين يرون إخوانهم يرزقون ويزادون .. وهناك خلاف فقهى حول سقوط سهم هؤلاء المؤلفة قلوبهم بعد غلبة الإسلام .. ولكن هانحن أولاء فى هذا الزمان نجد كثيرا من الحالات تحتاج إلى إعطاء جماعة من الناس على هذا الوجه ؛ إما إعانة لهم على الثبات على الإسلام إن كانوا يحاربون فى أرزاقهم لإسلامهم، كناس فى الهند وغيرها الآن ، أو يغرون من المبشرين والمستعمرين على الكيد للإسلام ومنهم فى ديارنا كثيرون . وإما تقريبا لهم من الإسلام كبعض الشخصيات غير المسلمة التى يرجى أن تنفع الإسلام بالدعوة له والذب عنه هنا وهناك. نرى هذه الحاجة فنرى مظهرا لكمال حكمة الله فى تدبيره لأمر المسلمين على اختلاف الظروف والأحوال .

«وفى الرقاب » .. ذلك حين كان الرق نظاما عالميا ، تجرى المعاملة فيه على المثل فى استرقاق الأسرى بين المسلمين وأعدائهم . ولم يكن للإسلام بد من المعاملة بالمثل حتى يتعارف العالم على نظام آخر غير الاسترقاق (وقد فصلنا هذا الأمر فيما مضى من الظلال)[1] .. وهذا السهم كان يستخدم فى إعانة من يكاتب سيده على الحرية فى نظير مبلغ يؤديه له ، ليحصل على حريته بمساعدة قسطه من الزكاة . أو بشراء رقيق وإعتاقهم بمعرفة الدولة من هذا المال .

« والغارمين » .. وهم المدينون فى غير معصية . يعطون من الزكاة ليوفوا ديونهم ، بدلا من إعلان إفلاسهم كما تصنع الحضارة المادية بالمدينين من التجار مهما تكن الأسباب . فالإسلام نظام تكافلى ، لا يسقط فيه الشريف ، ولا يضيع فيه الأمين ، ولا يأكل الناس بعضهم بعضا فى صورة قوانين نظامية ، كما يقع فى شرائع الأرض أو شرائع الغاب !

« وفى سبيل الله » .. وذلك باب واسع يشمل كل مصلحة للجماعة ، تحقق كلمة الله ، وفى أولها إعداد العدة للجهاد ، وتجهيز المتطوعين وتدريبهم ؛ وبعث البعوث للدعوة إلى الإسلام ، وبيان أحكامه وشرائعه للناس أجمعين ؛ وتأسيس المدارس والجامعات التى تربى الناشئة تربية إسلامية صحيحة ، فلا نكلهم إلى مدارس الدولة تعلمهم كل شىء إلا الإسلام ، ولا مدارس المبشرين تعتدى على طفولتهم وحداثتهم وهم لا يملكون رد العدوان .

---

(١) الجزء الثانى ص ٥٩ — ٦٠ من الطبعة الأولى .

« وابن السبيل » .. وهو المسافر المنقطع عن ماله ــ ولو كان غنيا فى بلده ــ وعندنا منهم اليوم لاجئون مشردون من فلسطين وغيرهامن بلاد الإسلام التى دنسها الاستعمار والطغيان . تتولى الدول الاستعمارية كفالتهم لتأكل رجولتهم ومروءتهم وتبقيهم متسولين منحلين ، لايفكرون فى وطن ضائع ، ولا عزة جريحة . وتبيدهم إبادة منظمة باسم الإغاثة . ولو كان لهم سهم من الزكاة فى الوطن الإسلامى الكبير ، مالقوا هـذا المصير المفزع الذى يلقاه لاجئو فلسطين وغيرهم من المشردين .

هذه هى الزكاة التى يتقول عليها المتقولون فى هذا الزمان ، ويلمزونها بأنها نظام تسول وإحسان [1].. هذه هى فريضة اجتماعية ، تؤدى فى صورة عبادة إسلامية . ذلك ليطهر الله بها القلوب من الشح ؛ وليجعلها وشيجة تراحم وتضامن بين أفراد الأمة المسلمة ، تندى جو الحياة الإنسانية ، وتمسح على جراح البشرية ؛ وتحقق فى الوقت ذاته مايحققه التأمين الاجتماعى والضمان الاجتماعى فى أوسع الحدود . وتبقى لها صفة العبادة التى تربط بين القلب البشرى وخالقه ، كما تربط بينه وبين الناس . « فريضة من الله » الذى يعلم مايصلح لهذه البشرية ، ويدبر أمرها بالحكمة « والله عليم حكيم » .

* * *

وبعد بيان قواعد الصدقات ، التى يرجع إليها التوزيع والتقسيم . ذلك البيان الذى يكشف عن جهل الذين يلمزون الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ فوق سوء أدبهم حين يلمزون الرسول الأمين . بعد هذا يمضى السياق يعرض صنوف المنافقين ، وما يقولون وما يفعلون :

« ومنهم الذين يؤذون النبى ، ويقولون : هو أذن . قل : أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ، ورحمة للذين آمنوا منكم ، والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم يحلفون بالله لكم ليرضوكم ،والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين . ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم خالدا فيها . ذلك الخزى العظيم . يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم . قل : استهزئوا إن الله مخرج ماتحذرون . ولئن سألتهم ليقولن : إنما كنا نخوض

---

(١) يراجع كتاب : « معركة الإسلام والرأسمالية » وكتاب « السلام العالمى والإسلام » فى موضوع الزكاة .

ونلعب . قل : أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ؛ إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين » .

إنه سوء الأدب في حق الرسول ، يبدو في صورة أخرى غير صورة اللمز في الصدقات . إنهم يجدون من النبي — صلى الله عليه وسلم — أدبا رفيعا في الاستماع إلى الناس بإقبال وسماحة ؛ ويعاملهم بظاهرهم حسب أصول شريعته ؛ ويهش لهم ويفسح لهم من صدره . فيسمون هذا الأدب العظيم بغير اسمه ، ويصفونه بغير حقيقته ، ويقولون عن النبي — صلى الله عليه وسلم — « هو أذن » أي سماع لكل قول ، يجوز عليه الكذب والخداع والبراعة ، ولا يفطن إلى غش القول وزوره . من حلف له صدقه ، ومن دس عليه قولا قبله . يقولون هذا بعضهم لبعض تطمينا لأنفسهم أن يكشف النبي — صلى الله عليه وسلم — حقيقة أمرهم ، أو يفطن إلى نفاقهم . أو يقولونه طعنا على النبي في تصديقه للمؤمنين الخلص الذين ينقلون له ما يطلعون عليه من شئون المنافقين وأعمالهم وأقوالهم عن الرسول وعن المسلمين . وقد وردت الروايات بهذا وذلك في سبب نزول الآية . وكلاهما يدخل في عمومها . وكلاهما يقع من المنافقين .

ويأخذ القرآن الكريم كلامهم ليجعل منه ردا عليهم . يقول لهم : « قل هو أذن » نعم ولكنه « أذن خير لكم » .. أذن خير يستمع إليكم في أدب ولا يجبهكم بنفاقكم ، ولا يرميكم بخداعكم ، ولا يأخذكم بريائكم . « يؤمن بالله » فيصدق كل مايخبره به عنكم وعن سواكم « ويؤمن للمؤمنين » فيطمئن إليهم ويثق بهم ، لأنه يعلم منهم صدق الإيمان الذي يعصمهم من الكذب والالتواء والرياء « ورحمة للذين آمنوا منكم » يأخذ بيدهم إلى الخير . أما الذين ينافقون ولا يؤمنون ، ويؤذون رسول الله فلهم عذاب أليم من الله غيرة على الرسول أن يؤذى وهو رسول الله .

« يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين » .. يحلفون بالله لكم ليرضوكم ، على طريقة المنافقين في كل زمان ، الذين يقولون مايقولون ويفعلون مايفعلون من وراء الظهور ؛ ثم يجبنون عن المواجهة ، ويضعفون عن المصارحة ، فيتضاءلون ويتخاذلون للناس ليرضوهم « والله ورسوله أحق أن يرضوه » .. « إن كانوا مؤمنين » كما يدعون . فماذا يكون الناس ؟ وماذا تبلغ قوتهم ؟ ولكن الذي لا يؤمن بالله عادة ولا يعنو له ، يعنو لإنسان مثله ويخشاه ؛ ولقد كان خيرا أن يعنو لله الذي يتساوى أمامه الجميع ، ولا يذل من يخضع له ،

إنمـا يذل من يخضع لعباده ، ولا يصغر من يخشاه، إنما يصغر من يعرضون عنه فيخشون من دونه من العباد ..

«ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم خالدا فيها ، ذلك الخزى العظيم» .. سؤال التأنيب والتوبيخ ، فإنهم ليدعون الإيمان ، ومن يؤمن يعلم أن حرب الله ورسوله كبرى الكبائر ، وأن جهنم فى انتظار من يرتكبها من العباد ، وأن الخزى هو الجزاء المقابل للتمرد . فإذا كانوا قد آمنوا كما يدعون ، فكيف لايعلمون ؟

إنهم يخشون عباد الله فيحلفون لهم ليرضوهم ، ولينفوا مابلغهم عنهم . فكيف لا يخشون خالق العباد ، وهم يؤذون رسوله ، ويحاربون دينه . فكأنما يحاربون الله ، تعالى الله أن يقصده أحد بحرب ، إنما هو تفظيع ما يرتكبون من إثم ، وتجسيم مايقارفون من خطيئة ، وتخويف من يؤذون رسول الله ، ويكيدون لدينه فى الخفاء .

وإنهم لأجبن من أن يواجهوا الرسول والذين معه ، وإنهم ليخشون أن يكشف الله سترهم ، وأن يطلع الرسول — صلى الله عليه وسلم — على نواياهم : « يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم . قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون . ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب . قل : أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ؟ إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين » ..

إن النص عام فى حذر المنافقين أن ينزل الله قرآنا يكشف خبيئتهم ، ويتحدث عما فى قلوبهم ، فينكشف للناس مايخشونه . وقد وردت عدة روايات عن حوادث معينة فى سبب نزول هذه الآيات .

قال أبو معشر المدينى عن محمد بن كعب القرظى وغيره قالوا : قال رجل من المنافقين : ماأرى قراءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطونا وأكذبنا ألسنة ، وأجبننا عند اللقاء (وكان ذلك فى غزوة تبوك يقصدون قراء القرآن) فرفع ذلك إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فجاء إلى رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — وقد ارتحل وركب ناقته ، فقال يارسول الله إنما كنا نخوض ونلعب ، فقال : « أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟ » إلى قوله : « كانوا مجرمين » وإن رجليه لتسفعان الحجارة ، وما يلتفت إليه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو متعلق بسيف رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم .

وقال محمد بن إسحاق : وقدكان جماعة من المنافقين منهم وديعة بن ثابت أخو بنى أمية ابن زيد بن عمرو بن عوف، ورجل من أشجع حليف لبنىسلمة يقال له مخشى بن حمير يسيرون مع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو منطلق إلى تبوك ؛ فقال بعضهم لبعض : أتحسبون جلاد بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضا ؟ والله لكأنا بكم غدا مقرنين فى الحبال .. إرجافا وترهيبا للمؤمنين . فقال مخشى بن حمير : والله لوددت أن أقاضى على أن يضرب كل رجل منا مئة جلدة ، وأننا ننجو أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه . وقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فيما بلغنى لعمار بن ياسر « أدرك القوم فإنهم قد احترقوا ، فاسألهم عما قالوا ، فإن أنكروا فقل : بلى قلتم كذا وكذا » فانطلق إليهم عمار ، فقال ذلك لهم ، فأتوا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يعتذرون إليه ، فقالوديعة بن ثابت ، ورسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ واقف على راحلته ، فجعل يقول وهو آخذ بحقبها : يارسول الله إنما كنا نخوض ونلعب . فقال مخشى بن حمير : يارسول الله فعد لى اسمى واسم أبى . فكان الذى عفى عنه فى هذه الآية مخشى بن حمير ، فتسمى عبد الرحمن ، وسأل الله أن يقتل شهيدا لايعلم بمكانه ، فقتل يوم اليمامة ولم يوجدله أثر .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبوالشيخ عن قتادة قال : « بينما رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى غزوته إلى تبوك ، وبين يديه أناس من المنافقين . فقالوا : أيرجوهذا الرجل أن يفتح له قصور الشام وحصونها ؟ هيهات هيهات . فأطلع الله نبيه ــ صلى الله عليه وسلم ــ على ذلك . فقال النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ «احبسوا علىّ هؤلاء الركب » فأتاهم فقال قلتم كذا . قلتم كذا . قالوا : يانبى الله إنما كنا نخوض ونلعب ، فأنزل الله فيهم ماتسمعون .

إنما كنا نخوض ونلعب .. كأن هذه المسائل الكبرى التى يتصدون لها ، وهى ذات صلة وثيقة بأصل العقيدة .. كأن هذه المسائل مما يخاض فيه ويلعب . « قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟ »

لذلك . لعظم الجريمة . يجبههم بأنهم قالوا كلمة الكفر، وكفروا بعد إيمانهم الذى أظهروه ، وينذرهم بالعذاب ، الذى إن تخلف عن بعضهم لمسارعته إلى التوبة وإلى الإيمان الصحيح ، فإنه لن يصرف عن بعضهم الذى ظل على نفاقه واستهزائه بآيات الله ورسوله ، وبعقيدته ودينه « بأنهم كانوا مجرمين » .

* * *

وعند مايصل السياق الى هذا الحد فى استعراض تلك النماذج من أقوال المنافقين وأعمالهم وتصوراتهم ، يعمد إلى تقرير حقيقة المنافقين بصفة عامة ، وعرض الصفات الرئيسية التى تميزهم عن المؤمنين الصادقين ، وتحديد العذاب الذى ينتظرهم أجمعين :

« المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ، ويقبضون أيديهم ، نسوا الله فنسيهم . إن المنافقين هم الفاسقون . وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها ؛ هى حسبهم ، ولعنهم الله ، ولهم عذاب مقيم » .

المنافقون والمنافقات من طينة واحدة ، وطبيعة واحدة . المنافقون فى كل زمان وفى كل مكان. تختلف أفعالهم وأقوالهم ، ولكنها ترجع إلى طبع واحد ، وتنبع من معين واحد . سوء الطوية ولؤم السريرة ، والغمز والدس ، والضعف عن المواجهة ، والجبن عن المصارحة . تلك سماتهم الأصلية . أما سلوكهم فهو الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف ، والبخل بالمال إلا أن يبذلوه رئاء الناس . وهم حين يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف يستخفون بهما ، ويفعلون ذلك دسا وهمسا ، وغمزا ولمزا ، لأنهم لايجرؤون على الجهر إلا حين يأمنون . إنهم « نسوا الله » فلا يحسبون إلا حساب الناس وحساب المصلحة ، ولايخشون إلا الأقوياء من الناس يذلون لهم ويدارونهم «فنسيهم» الله فلا وزن لهم ولا اعتبار . وإنهم لكذلك فى الدنيا بين الناس، وإنهم لكذلك فى الآخرة عند الله . ومايحسب الناس حسابا إلا للرجال الأقوياء الصرحاء ، الذين يجهرون بآرائهم ، ويقفون خلف عقائدهم ، ويواجهون الدنيا بأفكارهم ، ويحاربون أويسالمون فى وضح النهار . أولئك ينسون الناس ليذكروا إله الناس ، فلا يخشون فى الحق لومة لائم ، وأولئك يذكرهم الله فيذكرهم الناس ويحسبون حسابهم .

« إن المنافقين هم الفاسقون » فهم خارجون عن الإيمان ، منحرفون عن الطريق ، وقد وعدهم الله مصيرا كمصير الكفار « نار جهنم خالدين فيها » . . « هى حسبهم » وهى كفاء إجرامهم « ولعنهم الله » فهم مطرودون من رحمته « ولهم عذاب مقيم » ..

***

هذه الطبيعة الفاسقة المنحرفة الضالة ، ليست جديدة، ففى تاريخ البشرية لها نظائر وأمثال . ولقد حوى تاريخ البشرية من قبل هؤلاء نماذج كثيرة من هذا الطراز . ولقد لاقى السابقون

مصائر تليق بفسوقهم عن الفطرة المستقيمة والطريق القويمة ، بعد ما استمتعوا بنصيبهم القدر لهم فى هذه الأرض . وكانوا أشد قوة وأكثر أموالا وأولادا فلم يغن عنهم من ذلك كله شىء .

والقرآن يذكر القوم بما كان من أسلافهم ، ويبصرهم بأنهم يسلكون طريقهم ، ويحذرهم أن يلاقوا مصيرهم ، لعلهم يهتدون :

« كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا ، فاستمتعوا بخلاقهم . فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم ، وخضتم كالذى خاضوا . أولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون » .

إنها الفتنة بالقوة ، والفتنة بالأموال والأولاد . فأما الذين اتصلت قلوبهم بالقوة الكبرى فهم لا يفتنون بالقوة العارضة التى تخول لهم فى الأرض ، لأنهم يخشون من هو أقوى ، فينفقون قوتهم فى طاعته وإعلاء كلمته . وهم لا يفتنون بالأمول والأولاد لأنهم يذكرون من أنعم عليهم بالأموال والأولاد ، فيحرصون على شكر نعمته ، وتوجيه أموالهم وأولادهم إلى طاعته .. وأما الذين انحرفت قلوبهم عن مصدر القوة والنعمة فهم يبطرون ويفجرون فى الأرض، ويتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام « أولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة » وبطلت بطلانا أساسيا ، لأنها كالنبتة بلا جذور ، لا تستقر ولا تنمو ولا تزدهر « وأولئك هم الخاسرون » الذين خسروا كل شىء على وجه الإجمال بلا تحديد ولا تفصيل .

ويلتفت السياق من خطابهم إلى خطاب عام ، كأنما يعجب من هؤلاء الذين يسيرون فى طريق الهالكين ولا يعتبرون :

« ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات ؟ أتتهم رسلهم بالبينات ، فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

هؤلاء الذين يستمتعون غير شاعرين ، ويسيرون فى طريق الهلكى ولا يتعظون .. هؤلاء « ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم » ممن ساروا فى نفس الطريق ؟ « قوم نوح » وقد غمرهم الطوفان وطواهم اليم فى تيار الفناء المرهوب «وعاد» وقد أهلكوا بريح صرصر عاتية « وثمود» وقد أخذتهم الصيحة « وقوم إبراهيم » وقد أهلك طاغيتهم المتجبر وأنجى إبراهيم « وأصحاب مدين » وقد أصابتهم الرجفة وخنقتهم الظلة « والمؤتفكات » قرى قوم لوط وقد قطع الله دابرهم إلا الأقلين .. ألم يأتهم نبأ هؤلاء الذين «أتتهم رسلهم بالبينات» فكذبوا بها ، فأخذهم الله بذنوبهم « فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » ؟

إن النفس المنحرفة تبطرها القوة فلا تذكر، وتعميها النعمة فلاتنظر . وما تنفع عظات الماضى ولاعبره إلامن تتفتح بصائرهم، لإدراك سنةالله التى لاتتخلف، ولاتتوقف، ولاتحابى أحدا من الناس . وإن كثيرا ممن يبتليهم الله بالقوة وبالنعمة لتغشى أبصارهم وبصائرهم غشاوة ، فلا يبصرون مصارع الأقوياء قبلهم ، ولا يستشعرون مصير البغاةالطغاة من الغابرين. عندئذ تحق عليهم كلمة الله، وعندئذ تجرى فيهم سنة الله ، وعندئذ يأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر . وهم فى نعائهم يتقلبون ، وبقوتهم يتخايلون . والله من ورائهم محيط .

إنها الغفلة والعمى والجهالة تراها تصاحب القوة والنعمة والرخاء، تراها فى كل زمان وفى كل مكان . إلا من رحم الله من عباده المخلصين .

***

وفى مقابل المنافقين والكفار ، يقف المؤمنون الصادقون . طبيعة غير الطبيعة ، وسلوكا غير السلوك ، ومصيرا غير المصير :

« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، ويطيعون الله ورسوله . أولئك سيرحمهم الله ، إن الله عزيز حكيم . وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ومساكن طيبة فى جنات عدن ، ورضوان من الله أكبر . ذلك هو الفوزالعظيم » .

إذا كان المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض . إذا كانوا جبلة واحدة وطبيعة واحدة . . فالمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض . إن المنافقين والمنافقات مع وحدة طبيعتهم لايبلغون أن يكونوا أولياء بعضهم لبعض . فالولاية تحتاج إلى شجاعة وإلى نجدة وإلى تعاون وإلى تكاليف. وطبيعة النفاق تأبى هذا كله ولو كان بين المنافقين أنفسهم . إن المنافقين أفراد ضعاف مهازيل ، وليسوا جماعة متماسكة قوية متضامنة ، على مايبدو بينهم من تشابه فى الطبيعة والخلق والسلوك . والتعبير القرآنى الدقيق لايغفل هذا المعنى فى وصف هؤلاء وهؤلاء . . « المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض » . . « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » .

إن طبيعة المؤمن هى طبيعة الأمة المؤمنة . طبيعة الوحدة وطبيعة التكافل ، وطبيعة التضامن

ولـكنه التضامن فى تحقيق الخير ودفع الشر : « يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » . . وتحقيق الخير ودفع الشر يحتاج إلى الولاية والتضامن والتعاون . ومن هنا تقف الأمة المؤمنة ــ حين يصح إيمانها ــ صفا واحدا ـ لا تدخل بينها عوامل الفرقة . وحيثما وجدت الفرقة فى الجماعة المؤمنة فثمة ولابد عنصر غريب عن طبيعتها، وعن عقيدتها ، هو الذى يدخل بالفرقة . ثمة غرض أومرض يمنع السمة الأولى ويدفعها . السمة التى يقررها العليم الخبير ، «بعضهم أولياء بعض» يتجهون بهذه الولاية إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإعلاء كلمة الله ، وتحقيق الوصاية لهذه الأمة فى الأرض .

« ويقيمون الصلاة » الصلة التى تربطهم بالله . « ويؤتون الزكاة » الفريضة التى تربط بين الجماعة المسلمة ، وتحقق الصورة المادية والروحية للولاية والتضامن :

«ويطيعون الله ورسوله ».. فلا يكون لهم هوى غير أمر الله وأمر رسوله ، ولا يكون لهم دستور إلا شريعة الله ورسوله . ولا يكون لهم منهج إلا دين الله ورسوله ، ولا يكون لهم الخيرة إذا قضى الله ورسوله .. وبذلك يوحدون نهجهم ويوحدون هدفهم ويوحدون طريقهم ، فلا تتفرق بهم السبل عن الطريق الواحد الواصل المستقيم .

« أولئك سيرحمهم الله » .. والرحمة لا تكون فى الآخرة وحدها ، إنما تكون فى هذه الأرض أولا . ورحمة الله تشمل الفرد الذى ينهض بتكاليف الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ؛ وتشمل الجماعة المكونة من أمثال هذا الفرد الصالح . رحمة الله فى اطمئنان القلب ، وفى الاتصال بالله ، وفى الرعاية والحماية من الفتن والأحداث . ورحمة الله فى صلاح الجماعة وتعاونها وتضامنها واطمئنان كل فرد للحياة واطمئنانه لرضاء الله .

إن هذه الصفات الأربع فى المؤمنين : الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة ، لتقابل من صفات المنافقين : الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف ونسيان الله وقبض الأيدي .. وإن رحمة الله للمؤمنين لتقابل لعنته للمنافقين والكفار .. وإن تلك الصفات لهى التى وعد الله المؤمنين عليها بالنصر والتمكين فى الأرض ليحققوها فى وصايتهم الرشيدة على البشرية « إن الله عزيز حكيم » قادر على إعزاز الفئة المؤمنة ليكون بعضها أولياء بعض فى النهوض بهذه التكاليف ، حكيم فى تقدير النصر والعزة لها ، لتصلح فى الأرض ، وتحرس كلمة الله بين العباد .

وإذا كان عذاب جهنم ينتظر المنافقين والـكافرين ، وكانت لعنته لهم بالمرصاد ، وكان نسيانه لهم يدمغهم بالضآلة والحرمان فإن نعيم الجنة ينتظر المؤمنين : « جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن» للإقامة المطمئنة . ولهم فوقها ماهو أكبر وأعظم « ورضوان من الله أكبر » .. وإن الجنة بكل ما فيها من نعيم لتتضاءل وتتوارى فى هالات ذلك الرضوان الـكريم .

« ورضوان من الله أكبر » .. إن لحظة اتصال بالله . لحظة شهود لجلاله . لحظة انطلاق من حبسة هذه الأمشاج ، ومن ثقلة هذه الأرض وهمومها القريبة . لحظة تنبثق فيها فى أعماق القلب البشرى شعاعة من ذلك النور الذى لا تدركه الأبصار . لحظة إشراق تنير فيها حنايا الروح بقبس من روح الله .. إن لحظة واحدة من هذه اللحظات التى تتفق للندرة القليلة من البشر فى ومضة صفاء ، ليتضاءل إلى جوارها كل متاع ، وكل رجاء .. فـكيف برضوان من الله يغمر هذه الأرواح ، وتستشعره بدون انقطاع ؟ « ذلك هو الفوز العظيم » ..

***

وبعد بيان صفة المؤمنين الصادقين وصفة المنافقين الذين يدعون الإيمان .. يأمر الله نبيه أن يجاهد الـكفار والمنافقين . ويقرر القرآن الـكريم أن هؤلاء المنافقين — يعنى بعضهم — قالوا كلة الـكفر وكفروا بعد إسلامهم ، وهموا بأمر خيبهم الله فيه ، وهو من وحى الـكفر الذى صاروا إليه . ويعجب من نقمتهم على رسول الله — صلى الله عليـه وسلم — وما كان لهم من بعثته إلا الخير والغنى . ويرغبهم فى التوبة ويخوفهم التمادى فى الـكفر والنفاق :

« يأيها النبى جاهد الـكفار والمنافقين واغلظ عليهم ، ومأواهم جهنم وبئس المصير . يحلفون بالله ماقالوا ، ولقد قالوا كلمة الـكفر ، وكفروا بعد إسلامهم ، وهموا بما لم ينالوا . وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله . فإن يتوبوا يك خيرا لهم ، وإن يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما فى الدنيا والآخرة ، ومالهم فى الأرض من ولى ولا نصير » ..

لقد كان الرسول — صلى الله عليه وسلم — لاين المنافقين كثيرا ، وأغضى عنهم كثيرا ، وصفح عنهم كثيرا .. فهاهو ذا يبلغ الحلم غايته ، وتبلغ السماحة أجلها ، ويأمره ربه أن يبدأ معهم خطة جديدة ،

ويلحقهم بالكافرين فى النص ، ويكلفه جهاد هؤلاء وهؤلاء جهادا عنيفا غليظا لا رحمة فيه ولا هوادة .

إن للين مواضعه وللشدة مواضعها . فإذا انتهى أمد اللين فلتكن الشدة ؟ وإذا انقضى عهد المصابرة فليكن الحسم القاطع .. وللدعوات مقتضياتها ، واللين فى بعض الأحيان قد يؤذى ، والمطاولة قد تضر .

وقد اختلف فى الجهاد والغلظة على المنافقين . أتكون بالسيف كما روى عن على — كرم الله وجهه — واختاره ابن جرير — رحمه الله — أم تكون فى المعاملة والمواجهة وكشف خبيثاتهم للأنظار كما روى عن ابن عباس — رضى الله عنه — والذى وقع — كما سيجى — أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لم يقتل المنافقين . .

« يحلفون بالله ماقالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا » .. والنص فى عمومه يستعرض حالة المنافقين فى كثير من مواقفهم ، ويشير إلى ماأرادوه مرارا من الشر للرسول — صلى الله عليه وسلم — وللمسلمين .. وهناك روايات تحدد حادثة خاصة لسبب نزول الآية :

قال قتادة : نزلت فى عبدالله بن أبى . وذلك أنه اقتتل رجلان جهنى وأنصارى ، فعلا الجهنى على الأنصارى ، فقال عبدالله للأنصارى : ألا تنصرون أخاكم ؟ والله مامثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل : سمن كلبك يأكلك . وقال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبى — صلى الله عليه وسلم — فأرسل إليه فسأله ، فجعل يحلف بالله ماقاله ، فأنزل الله فيه هذه الآية .

ويروى الإمام أبو جعفر ابن جرير بأسناده عن ابن عباس قال : كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — جالسا تحت ظل شجرة ، فقال : « إنه سيأتيكم إنسان ، فينظر إليكم بعين الشيطان ، فإذا جاء فلا تكلموه » ، فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق ، فدعاه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : « علام تشتمنى أنت وأصحابك ؟ » فانطلق الرجل فجاء بأصحابه ، فحلفوا بالله ما قالوا ، حتى تجاوز عنهم ، فأنزل الله عز وجل : « يحلفون بالله ما قالوا . . . الآية » .

وروى عن عروة بن الزبير وغيره مامؤداه أنها نزلت فى الجلاس بن سويد بن الصامت .

كان له ربيب من امرأته اسمه عمير بن سعد ، فقال الجلاس : إن كان ما جاء به محمد حقا فنحن أشر من حمرنا هـذه التي نحن عليها . فقال عمير : والله ياجلاس إنك لأحب الناس إلى ، وأحسنهم عندى بلاء ، وأعزهم على أن يصله شيء يكره ، ولقد قلت مقالة لئن ذكرتها لتفضحنى ، ولئن كتمتها لتهلكنى ، ولإحداهما أهون على من الأخرى . فأخبرها رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فأنكرها وحلف بالله ما قالها ، فأنزل الله الآيات . فقال الرجل قد قلته ، وقد عرض الله على التوبة فأنا أتوب ، فقبل منه ذلك . .

فأما قوله : « وهموا بما لم ينالوا » فالروايات متضافرة على إرادة جماعة من المنافقين قتل رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ غيلة وهو عائد من تبوك . فنختار إحداها :

قال الإمام أحمد ــ رحمه الله ــ حدثنا يزيد أخبرنا الوليد ابن عبد الله ابن جميع عن أبي الطفيل قال : لما أقبل رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ من غزوة تبوك أمر مناديا فنادى : إن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أخذ العقبة [1] ، فلا يأخذها أحد . فبينما رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقوده حذيفة ويسوقه عمار إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل ، فغشوا عمارا وهو يسوق برسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فأقبل عمار ــ رضى الله عنه ــ يضرب وجوه الرواحل ، فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لحذيفة « قد . قد . » حتى هبط رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ نزل ، ورجع عمار . فقال يا عمار : « هل عرفت القوم ؟ » فقال : لقد عرفت عامة الرواحل والقوم متلثمون . قال : « هل تدرى ما أرادوا ؟ » قال : الله ورسوله أعلم . قال : « أرادوا أن ينفروا برسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ راحلته فيطرحوه » قال : فسأل عمار رجلا من أصحاب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال : نشدتك بالله ، كم تعلم كان أصحاب العقبة ؟ قال : أربعة عشر رجلا . فقال : إن كنت منهم فقد كانوا خمسة عشر . قال : فعد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ منهم ثلاثة قالوا : والله ما سمعنا منادى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وما علمنا ما أراد القوم . فقال عمار : أشهد أن الاثنى عشر الباقين حرب لله ولرسوله فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد .

هـذه الحادثة تكشف عن دخيلة القوم . وسواء كانت هى أو شيء مثلها هو الذى تعنيه

---

(١) مرتفع فى الطريق ضيق .

الآية ، فإنه ليبدو عجيبا أن تنطوى صدور القوم على مثل هذه الخيانة . والنص يعجب هنامنهم : « وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله » فما من سيئة قدمها الإسلام لهم ينقمون عليه هـذه النقمة من أجلها . . اللهم إلا أن يكون الغنى الذى غمرهم بعد الإسلام ، والرخاء الذى أصابهم بسببه هو ما ينقمون !

ثم يعقب على هذا التعجيب من أمرهم ، بعد كشف خبيئاتهم بالحكم الفاصل : « فإن يتوبوا يك خيرا لهم ، وإن يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما فى الدنيا والآخرة ، وما لهم فى الأرض من ولى ولا نصير » . . بعد هـذا كله يظل باب التوبة مفتوحا على مصراعيه . فمن شاء لنفسه الخير فليدلف إلى الباب المفتوح . ومن أراد أن يمضى فى طريقه الأعوج ، فالعاقبة كذلك معروفة : العذاب الأليم فى الدنيا والآخرة . وانعدام الناصر والمعين فى هـذه الأرض . . ولمن شاء أن يختار ، وهو وحده الملوم .

« وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ ، وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ ، وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ، وَأَنَّ اللهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ؟

« الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ، سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ .

« فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ ، وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَقَالُوا : لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ . قُلْ : نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ

كَانُوا يَفْقَهُونَ * فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَإِنْ رَجَعَكَ اللهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ : لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا ، وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ، إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ * وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا ، وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ، إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ * وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا ، وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ .

« وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ ، وَقَالُوا : ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ * رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ ، وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ * لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * أَعَدَّ اللهُ لَهُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

« وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ ، وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللهَ وَرَسُولَهُ ، سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

« لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلهِ وَرَسُولِهِ ، مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ : لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ » ..

يمضي السياق فى الحديث عن المنافقين فى هذا الدرس ، كما مضى فى الدرس الماضى ، وتعرض نماذج من سماتهم وتصوراتهم ، ونماذج من أقوالهم وأفعالهم ، فى غزوة تبوك ومن قبلها ومن بعدها كذلك .

فمنهم من يعاهد الله ثم لا يفى بما عاهد . ومنهم من يلمز المتطوعين بالصدقات ويتقول عليهم . ومنهم من يفرح بالتخلف عن رسول الله ، وينهى عن النفرة فى الحر . ومنهم من يستأذن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى التخلف وهو قادر على الخروج . ومنهم من يقعد بلا استئذان .

يعرض السياق هذه النماذج ويعرض مقابلها نماذج من المجاهدين الصادقين ، والمخلصين الذين لا يقعدون إلا اضطرارا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ماينفقون .

* * *

« ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به ، وتولوا وهم معرضون ، فأعقبهم نفاقافى قلوبهم إلى يوم يلقونه ،بماأخلفوا الله ماوعدوه وبما كانوا يكذبون » .

من المنافقين من عاهد الله لئن أنعم الله عليه ورزقه ، ليبذلن الصدقة ، وليصلحن العمل . ولكن هذا العهد إنما كان فى وقت فقره وعسرته . فى وقت الرجاء والطمع . فلما أن استجاب الله لهورزقه من فضله نسى عهده ، وتنكر لوعده ، وأدركه الشح والبخل فقبض يده ، وتولى معرضا عن الوفاء بما عاهد . فكان هذا النكث بالعهد مع الكذب على الله فيه سببا فى التمكين للنفاق فى قلبه ، والموت مع هذا النفاق ، ولقاء الله به .

والنفس البشرية ضعيفة شحيحة ، إلا من عصم الله ؛ ولا تطهر من هذا الشح إلا أن تعمر بالإيمان ،وترتفع على ضرورات الأرض،وتنطلق من قيود الحرص على النفع القريب ، لأنها تؤمل فى خلف أعظم ، وتؤمل فى رضوان من الله أكبر . والقلب المؤمن يطمئن بالإيمان، فلا يخشى الفقر بسبب الإنفاق ، لأنه يثق بأن ماعنـد الناس ينفد وماعند الله باق . وهذا الاطمئنان يدفع به إلى إنفاق المال فى سبيل الله تطوعا ورضى وتطهرا ، وهوآمن مغبته . حتى لوفقد المال وافتقر منه ، فإن له عوضا أعظم عند الله .

فأما حين يقفر القلب من الإيمان الصحيح ، فالشح الفطرى يهيج فى نفسه كلما دعى إلى نفقة أوصدقة ، والخوف من الفقر يتراءى له فيقعد به عن البذل . ثم يبقى سجين شحه وخوفه بلا أمن ولا قرار .

والذى يعاهد الله ثم يخلف العهد ، والذى يكذب على الله فلا يفى بما وعد ، لا يسلم قلبه من النفاق .و«آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان »(١)

فلاجرم يعقب إخلاف العهد والكذب على الله نفاقا دائما فى قلوب تلك الطائفة التى تشير إليها الآيات .

« ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب » ؟

ألم يعلموا — وهم يدعون الإيمان — أن الله مطلع على السرائر ، عالم بما يدور بينهم من أحاديث ، يحسبونها سرا بينهم لأنهم يتناجون بها فى خفية عن الناس ؟ وأن الله يعلم الغيب الخافى المستور ، فيعلم حقيقة النوايا فى الصدور ؟ ولقد كان من مقتضى علمهم بهذا ، ألا يستخفوا عن الله بنية ، وألا تحدثهم نفوسهم بإخلاف ماعاهدوا الله عليه ، والكذب عليه فى إعطاء العهود .

وردت روايات عن سبب نزول الآيات الثلاثة ، نذكر منها رواية عن ابن جرير وابن أبى حاتم من حديث معان — بأسناده — عن أبى أمامة الباهلى عن ثعلبة بن حاطب الأنصارى أنه قال لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — ادع الله أن يرزقنى مالا . قال : فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « ويحك ياثعلبة ،قليل تؤدى شكره خير من كثير لاتطيقه» قال :ثم قال مرة أخرى . فقال : « أما ترضى أن تكون مثل نبى الله فوالذى نفسى بيده لوشئت أن تسير الجبال معى ذهبا وفضة لسارت » قال : والذى بعثك بالحق لئن دعوت الله فرزقنى مالا لأعطين كل ذى حق حقه . فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — « اللهم ارزق ثعلبة مالا » قال : فاتخذ غنما فنمت كما ينمى الدود ، فضاقت للدينة ، فتنحى عنها فنزل واديا من أوديتها ، حتى جعل يصلى الظهر والعصر فى جماعة ويترك ماسواهما ، ثم نمت وكثرت فتنحى حتى ترك الصلوات إلا الجمعة ، وهى تنمى كما ينمى الدود حتى ترك الجمعة ، فطفق يتلقى الركبان يوم الجمعة ليسألهم عن الأخبار . فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — « مافعل ثعلبة ؟ » فقالوا يارسول الله اتخذ غنما فضاقت عليه المدينة ، فأخبروه بأمره ، فقال : « ياويح ثعلبة ! ياويح ثعلبة ! ياويح ثعلبة ! » وأنزل الله جل ثناؤه : « خذ من أموالهم صدقة » . . الآية . . ونزلت فرائض

(١) ورد فى الصحيحين.

الصدقة ، فبعث رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ رجلين على الصدقة من المسلمين . رجلا من جهينة ورجلا من سليم ، وكتب لهما كيف يأخذان الصدقة من المسلمين ؟ وقال لهما : « مرا بثعلبة وبفلان ــ رجل من بنى سليم ــ فخذا صدقاتهما . فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة ، وأقرآه كتاب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال : ماهذه إلا جزية . ماهذه إلا أخت الجزية . ماأدرى ماهذا ؟ انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إلىّ . وسمع بهما السلمى ، فنظر إلى خيار أسنان إبله فعزلها للصدقة ثم استقبلهما بها ، فلما رأوها قالوا : مايجب عليك هذا ،ومانريد أن نأخذ هذا منك . فقال : بل فخذوها فإن نفسى بذلك طيبة وإنما هى له ، فأخذاها منه ومرا على الناس فأخذا الصدقات . ثم رجعا إلى ثعلبة فقال : أرونى كتابكما فقرأه فقال : ماهذه إلا جزية ، ماهذه إلا أخت الجزية . انطلقا حتى أرى رأيى . فانطلقا حتى أتيا النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فلما رآهما قال : « ياويح ثعلبة » قبل أن يكلمهما ، ودعا للسلمى بالبركة ، فأخبراه بالذى صنع ثعلبة والذى صنع السلمى . فأنزل الله عزوجل «ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن... الآية» . وعند رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ رجل من أقارب ثعلبة ، فسمع بذلك ،فخرج حتى أتاه ، فقال : ويحك ياثعلبة ! أنزل الله فيك كذا وكذا ؟ فخرج ثعلبة حتى أتى النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فسأله أن يقبل منه صدقته ، فقال : « إن الله منعنى أن أقبل منك صدقتك » فجعل يحثو على رأسه التراب ، فقال له رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ « هذا عملك ، قد أمرتك فلم تطعنى » فلما أبى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يقبض صدقته رجع إلى منزله ؟ فقبض رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ ولم يقبل منه شيئا . ثم أتى أبا بكر ــ رضى الله عنه ــ حين استخلف ، فقال : قد علمت منزلتى من رسول الله وموضعى من الأنصار فاقبل صدقتى ؟ فقال أبوبكر : لم يقبلها منك رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأبى أن يقبلها ؟ فقبض أبوبكر ولم يقبلها. فلما ولى عمر ــ رضى الله عنه ــ أتاه فقال : « ياأمير المؤمنين اقبل صدقتى ، فقال : لم يقبلها رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولا أبوبكر ، وأنا أقبلها منك ؟ فقبض ولم يقبلها . فلما ولى عثمان ــ رضى الله عنه ــ أتاه فقال : اقبل صدقتى ، فقال : لم يقبلها رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولا أبوبكر ولا عمر ، وأنا أقبلها منك ؟ فلم يقلبها منه . فهلك ثعلبة فى خلافة عثمان . .

هذه رواية المشكل فيها أن الزكاة فرضت فى السنة الثانية من الهجرة . وليس بعد نزول آية « خذ من أموالهم .. » .

وسواء كانت هذه الواقعة مصاحبة لنزول الآيات أوكان غيرها ، فإن النص عام ، وهو يصور حالة عامة ، ويرسم نموذجا مكررا للنفوس التى لم تستيقن ، ولم يبلغ الإيمان فيها أن يتمكن . وإذا كانت الرواية صحيحة فى ربط الحادثة بنزول الآيات ، فإن علم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن نقض العهد والكذب على الله قد أورث المخلفين نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه، يكون هو الذى منعه من قبول صدقة ثعلبة وتوبته التى ظهر بها ، ولم يعامله بالظاهر حسب الشريعة . إنما عامله بعلمه بحاله الذى لاشك فيه لأنه إخبار من العليم الخبير . وكان تصرفه ـ صلى الله عليه وسلم ـ تصرفا تأديبيا برد صدقته . مع عدم اعتباره مرتدا فيؤخذ بعقوبة الردة ، ولامسلما فتقبل منه زكاته . ولايعنى هذا إسقاط الزكاة عن المنافقين شريعة . إن الشريعة تأخذ الناس بظاهرهم . فيما ليس فيه علم يقينى ، كالذى كان فى هذا الحادث الخاص ، فلا يقاس عليه .

غير أن رواية الحادث تكشف لنا كيف كان المسلمون الأوائل ينظرون إلى الزكاة المفروضة. إنهم كانوا يحتسبونها نعمة عليهم ، من يحرم أداءها أو يحرم قبولها منه ، فهو الخاسر الذى يستحق الترحم مما أصابه من رفض زكاته ! مدركين لحقيقة المعنى الكامن فى قوله تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » فكانت لهم غنما ينالونه لا غرما يحملونه . وهذا هو الفارق بين فريضة تؤدى ابتغاء رضوان الله ، وضريبة تدفع لأن القانون يحتمها ويعاقب عليها الناس .

***

والآن يعرض السياق لونا آخر من تصورات المنافقين للزكاة يخالفون به ذلك التصور الحق عند المؤمنين الصادقين ؛ ويكشف عن لون من طبيعة الغمز فيهم واللمز ، النابعين من طبعهم المنحرف المدخول :

« الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات ، والذين لا يجدون إلا جهدهم ، فيسخرون منهم . سخر الله منهم ولهم عذاب أليم » ..

والقصة المروية عن سبب نزول هذه الآية ، تصور نظرة المنافقين المنحرفة لطبيعة الزكاة ؛ وبواعثها في النفوس :

أخرج ابن جرير من طريق يحي بن أبي كثير ، ومن طريق سعيد عن قتادة وابن أبي حاتم من طريق الحكم بن أبان عن عكرمة — بألفاظ مختلفة — قال : حث رسول الله —صلى الله عليه وسلم — على الصدقة يعني في غزوة تبوك ، فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف فقال : يارسول الله مالي ثمانية آلاف ، جئتك بنصفها وأمسكت نصفها ، فقال : « بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت » ، وجاء أبو عقيل بصاع من تمر فقال : يارسول الله أصبت صاعين من تمر صاع أقرضه لربي وصاع لعيالي . قال فلمزه المنافقون ، وقالوا : ما الذى أعطى ابن عوف إلا رياء . وقالوا : ألم يكن الله ورسوله غنيين عن صاع هذا ؟

وفي روايات أخرى أنهم قالوا عن أبي عقيل ، وهو الذى بات يعمل ليحصل على صاعين أجرا له ، جاء بأحدهما لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — إنه إنما أراد أن يذكر بنفسه !

وهكذا تقولوا على المؤمنين الذين انبعثوا إلى الصدقة عن طواعية نفس ، ورضى قلب ، واطمئنان ضمير ، ورغبة في المساهمة في الجهاد كل على قدر طاقته ، وكل على غاية جهده . ذلك أنهم لا يدركون بواعث هذا التطوع في النفوس المؤمنة . لا يدركون حساسية الضمير التي لا تهدأ إلا بالبذل عن طيب خاطر . لا يدركون للشاعر الرفرافة التي تنبعث انبعاثا ذاتيا ، لتلبي دواعي الإيمان والتضحية والمشاركة . من أجل هذا يقولون عن المكثر إنه يبذل رياء ، وعن المقل إنه يذكر بنفسه . يجرحون صاحب الكثير لأنه يبذل كثيرا ، ويحتقرون صاحب القليل لأنه يبذل القليل . فلا يسلم من تجريحهم وعيبهم أحد من الخيرين . ذلك وهم قاعدون متخلفون منقبضو الأيدي شحيحو الأنفس ، لا ينفقون إلا رياء ، ولا يدركون من بواعث النفوس إلا مثل هذا الباعث الصغير الحقير .

ومن ثم يجبههم الرد الحاسم الجازم : « سخر الله منهم ولهم عذاب أليم » . . ويالهولها سخرية . ويالهولها عاقبة . فمن شرذمة صغيرة هزيلة من البشر الضعاف الفانين وسخرية الخالق الجبار تنصب عليهم وعذابه يترقبهم ؟ ! ألا إنه للهول المفزع الرهيب !

« استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ، ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله ، والله لا يهدى القوم الفاسقين » ..

هؤلاء المنافقون الذين يلمزون المتطوعين بالصدقات على هذا النحو ، قد تقرر مصيرهم ، فما عاد يتبدل « فلن يغفر الله لهم » . لن يجديهم استغفار ، فإنه وعدم الاستغفار لهم سواء .

ويبدو أن الرسول — صلى الله عليه وسلم — كان يستغفر للمخطئين عسى أن يتوب الله عليهم . فأما هؤلاء فقد أخبر بأن مصيرهم قد تقرر ، فلا رجعة فيه « ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله » . . « والله لا يهدى القوم الفاسقين » الذين انحرفوا عن الطريق فلم تعد ترجى لهم أوبة . وفسدت قلوبهم فلم يعد يرجى لها صلاح . . « إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » والسبعون تذكر عادة للتكثير ، لا على أنها رقم محدد . والمعنى العام أن لا رجاء لهم فى مغفرة ، لأنه لا سبيل لهم إلى توبة . والقلب البشرى حين يصل إلى حد معين من الفساد لا يصلح ، والضلال حين ينتهى إلى أمد معين لا يرجى بعده اهتداء . والله أعلم بالقلوب .

* * *

وينتقل السياق — مرة أخرى — إلى الحديث عن المتخلفين عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى غزوة تبوك :

« فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، وقالوا : لا تنفروا فى الحر . قل : نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون . فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون . فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل : لن تخرجوا معى أبدا ولن تقاتلوا معى عدوا . إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين . ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره ، إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون . ولا تعجبك أموالهم وأولادهم ، إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا ، وتزهق أنفسهم وهم كافرون » ...

هؤلاء الذين أدركتهم ثقلة الأرض . ثقلة الحرص على الراحة ، والشح بالنفقة . وقعد بهم ضعف الهمة وهزال النخوة ، وخواء القلب من الإيمان .. هؤلاء المخلفون — والتعبير يلقى ظل الإهمال كأنما لو كانوا متاعا يخلف أو همِلا يترك — فرحوا بالسلامة والراحة « خلاف رسول الله » وتركوا المجاهدين يلاقون الحر والجهد ، وحسبوا أن السلامة غاية يحرص عليها الرجال ! « وكرهوا

أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله » .. « وقالوا : لا تنفروا فى الحر » وهى قولة المسترخى الناعم الذى لا يصلح لشىء مما يصلح له الرجال .

إن هؤلاء لهم نموذج لضعف الهمة ، وطراوة الإرادة ؛ وكثيرون هم الذين يشفقون من المتاعب ، وينفرون من الجهد ، ويؤثرون الراحة الرخيصة على الكدح الكريم ، ويفضلون السلامة الذليلة على الخطر العزيز . وهم يتساقطون إعياء خلف الصفوف الجادة الزاحفة العارفة بتكاليف الدعوات . ولكن هذه الصفوف تظل فى طريقها المملوء بالعقبات والأشواك ، لأنها تدرك بفطرتها أن كفاح العقبات والأشواك فطرة فى الإنسان ، وأنه ألذ وأجمل من القعود والتخلف والراحة البليدة التى لا تليق بالرجال .

والنص يرد عليهم بالتهكم المنطوى على الحقيقة : « وقالوا : لا تنفروا فى الحر . قل : نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون » .

فإن كانوا يشفقون من حر الأرض ، ويؤثرون الراحة المسترخية فى الظلال . فكيف بهم فى حر جهنم وهى أشد حرا ، وأطول أمدا ؟ وإنها لسخرية مريرة ، ولكنها كذلك حقيقة . فإما كفاح فى سبيل الله فترة محدودة فى حر الأرض ، وإما انطراح فى جهنم لا يعلم مداه إلا الله : « فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون » وإنه لضحك فى هذه الأرض وأيامها المعدودة ، وإنه لبكاء فى أيام الآخرة الطويلة . وإن يوما عند ربك كألف سنة مما يعدون « جزاء بما كانوا يكسبون » فهو الجزاء من جنس العمل ، وهو الجزاء العادل الدقيق .

هؤلاء الذين آثروا الراحة على الجهد ـ فى ساعة العسرة ـ وتخلفوا عن الركب فى أول مرة . هؤلاء لا يصلحون لكفاح ، ولا يرجون الجهاد ، ولا يجوز أن يؤخذوا بالسماحة والتغاضى ، ولا أن يتاح لهم شرف الجهاد الذى تخلوا عنه راضين : « فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج ، فقل : لن تخرجوا معى أبدا ولن تقاتلوا معى عدوا ، إنكم رضيتم بالقعود أول مرة ، فاقعدوا مع الخالفين » ..

إن الدعوات فى حاجة إلى طبائع صلبة مستقيمة ثابتة مصممة تصمد فى الكفاح الطويل الشاق . والصف الذى يتخلله الضعاف المسترخون لا يصمد لأنهم يخذلونه فى ساعة الشدة فيشيعون فيه

الخذلان والضعف والاضطراب . فالذين يضعفون ويتخلفون يجب نبذهم بعيدا عن الصف وقاية له من التخلخل والهزيمة . والتسامح مع الذين يتخلفون عن الصف فى ساعة الشدة ، ثم يعودون إليه فى ساعة الرخاء ، جناية على الصف كله ، وعلى الدعوة التى يكافح فى سبيلها كفاحه المرير .. « فقل : لن تخرجوا معى أبدا ولن تقاتلوا معى عدوا » لماذا ؟ « إنكم رضيتم بالقعود أول مرة » ففقدتم حقكم فى شرف الخروج ، وشرف الانتظام فى الكتيبة ، والجهاد عبء لاينهض به إلامن هم له أهل . فلاسماحة فى هذا ولا مجاملة « فاقعدوا مع الخالفين » للتجانسين معكم فى التخلف والقعود .

هذا هو الطريق الذى رسمه الله تعالى لنبيه الكريم ، وإنه لطريق هذه الدعوة ورجالها أبدا . فليعرف أصحابها فى كل زمان وفى كل مكان ذلك الطريق ..

وكما أمر الله رسوله — صلى الله عليه وسلم — بألا يسمح للمتخلفين فى ساعة العسرة أن يعودوا فينتظموا فى الصفوف ، كذلك أمره ألا يخلع عليهم أى ظلال من ظلال التكريم : « ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره . إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون » .

ولقد ذكر المفسرون حادثا خاصا عنته هذه الآية . سنذكره هنا . ولكن دلالة الآية أعم من الحادثة الخاصة . فهى تقرر أصلا من أصول التقدير فى نظام الجماعات المكافحة فى سبيل العقيدة ، هو عدم التسامح فى منح مظاهر التكريم لمن يؤثرون الراحة المسترخية على الكفاح الشاق ؛ وعدم المجاملة فى تقدير منازل الأفراد فى الصف . ومقياس هذا التقدير هو الصبر والثبات والقوة والإصرار والعزيمة التى لاتسترخى ولاتلين .

فأما الحادث الخاص فقد قال الإمام أحمد — بإسناده — عن ابن عباس — رضى الله عنه — قال : سمعت عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — يقول : لما توفى عبد الله بن أبى دعى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — للصلاة عليه ، فقام إليه . فلما وقف يريد الصلاة تحولت حتى قمت فى صدره ، فقلت : يارسول الله ، أعلى عدو الله عبد الله بن أبى القائل يوم كذا وكذا وكذا — يعدد أيامه — قال : ورسول الله — صلى الله عليه وسلم — يبتسم ، حتى إذا أكثرت عليه قال : « أخر عنى ياعمر . إنى خيرت فاخترت . قد قيل لى « استغفر لهم ... الآية » . لوأعلم أنى لو زدت على السبعين غفر له لزدت » قال : ثم صلى عليه ومشى معه وقام على قبره حتى فرغ

منه . قال : فعجبت من جرأتى على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والله ورسوله أعلم . قال : فوالله ماكان إلا يسيرا حتى نزلت هاتان الآتيان : « ولاتصل على أحـد منهم مات أبدا ، ولاتقم على قبره ... الآية » . فما صلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعده على منافق ، ولاقام على قبره حتى قبضه الله عزوجل .

والنص يعلل هذا النهى فى موضعه هنا « إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون » وهو تعليل خاص بعدم الصلاة أو قيام الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على قبر منافق .. ولـكن القاعدة ـ كما ذكرنا ـ أوسع من المناسبة الخاصة . فالصلاة والقيام تكريم . والجمـاعة المسلمة يجب أن لاتبذل هذا التـكريم لمن يتخلف عن الصف فى ساعة الجهاد ، لتبقى له قيمته ، ولتظل قيم الرجال منوطة بما يبذلون فى سبيل الله ، وبما يصبرون على البذل ، ويثبتون على الجهد ، ويخلصون أنفسهم وأموالهم لله لايتخلفون بهما فى ساعـة الشدة ، ثم يعودون فى الصف مكرمين !

لا التكريم الظاهر ينالونه فى أعين الجماعة ، ولا التكريم الباطن ينالونه فى عالم الضمير : « ولاتعجبك أموالهم وأولادهم . إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون » ..

والمعنى العام للا ية قد سبق حين سبقت فى السياق بنصها . أما مناسبة ورودها فتختلف . فالمقصود هنا ألايقام وزن لأموالهم وأولادهم ، لأن الإعجاب بها نوع من التكريم الشعورى لهم . وهم لايستحقونه لافى الظاهر ولا فى الشعور . إنما هو الاحتقار والإهمال لهم ولما يملـكون .

***

« وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولو الطول منهم ، وقالوا : ذرنا نكن مع القاعدين : رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لايفقهون . لـكن الرسول والذين آمنوا معـه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم ، وأولئك لهم الخيرات ، وأولئك هم المفلحون ، أعد الله لهم جنات تجرى من تحتها الأنهـار ، خالدين فيها ، ذلك الفوز العظيم » ..

إنهما طبيعتان .. طبيعة النفاق والضعف والاستخذاء ، وطبيعة الإيمان والقوة والبلاء . وإنهما خطتان .. خطة الالتواء والتخلف والرضى بالدون ، وخطة الاستقامة والبذل والكرامة .

فإذا أنزلت سورة تأمر بالجهاد جاء أولو الطول ، الذين يملكون وسائل الجهاد والبذل . جاءوا لاليتقدموا الصفوف كما تقتضيهم القدرة التى وهبها الله لهم ، وشكر النعمة التى أعطاها الله إياهم ، ولكن ليتخاذلوا ويعتذروا ويطلبوا أن يقعدوا مع النساء لايذودون عن حرمة ولايدفعون عن سكن . دون أن يستشعروا مافى هذه القعدة الذليلة من صغار وهوان ، مادام فيها السلامة ، وطلاب السلامة لايحسون العار ، فالسلامة هدف الراضين بالدون : « رضوا بأن يكونوا مع الخوالف » . « وطبع على قلوبهم فهم لايفقهون » ولوكانوا يفقهون لأدركوا مافى الجهاد من قوة وكرامة وبقاء كريم ، ومافى التخلف من ضعف ومهانة وفناء ذميم .

«إن للذل ضريبة كما أن للكرامة ضريبة . وإن ضريبة الذل لأفدح فى كثير من الأحايين . وإن بعض النفوس الضعيفة ليخيل إليها أن الكرامة ضريبة باهظة لا تطاق ، فتختار الذل والمهانة هربا من هذه التكاليف الثقال ، فتعيش عيشة تافهة رخيصة ، مفزعة قلقة ، تخاف من ظلها ، وتفرق من صداها ، يحسبون كل صيحة عليهم ، ولتجدنهم أحرص الناس على حياة . . هؤلاء الأذلاء يؤدون ضريبة أفدح من تكاليف الكرامة . إنهم يؤدون ضريبة الذل كاملة . يؤدونها من نفوسهم ، ويؤدونها من أقدارهم ، ويؤدونها من سمعتهم ، ويؤدونها من اطمئنانهم ، وكثيرا مايؤدونها من دمائهم وأموالهم وهم لا يشعرون[1] » ومن هؤلاء أولئك الذين « رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون » .

« لكن الرسول والذين آمنوا معه » . . وهم طراز آخر غير ذلك الطراز « جاهدوا بأموالهم وأنفسهم » فنهضوا بتكاليف العقيدة ، وأدوا واجب الإيمان ؛ وعملوا للعزة التى لاتنال بالقعود « وأولئك لهم الخيرات » خيرات الدنيا والآخرة فى الدنيا لهم العزة ولهم الكرامة ولهم الغنم ولهم الكلمة العالية . وفى الآخرة لهم الجزاء الأوفى ، ولهم رضوان الله الكريم « وأولئك هم المفلحون » الفلاح فى الدنيا بالعيش الكريم القويم والفلاح فى الآخرة بالأجر العظيم : « أعد الله لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها » .. « ذلك الفوز العظيم » ..

---

(١) من فصل ضريبة الذل فى كتاب « دراسات إسلامية »

« وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم ، وقعد الذين كذبوا الله ورسوله ، سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم » ..

فأما الأولون فهم ذوو الأعذار الحقيقية فلهم عذرهم إن استأذنوا فى التخلف . وأما الآخرون فقعدوا بلا عذر . قعدوا كاذبين على الله والرسول . وهؤلاء ينتظر الذين كفروا منهم عذاب أليم . أما الذين يتوبون ولا يكفرون فسكوت عنهم لعل لهم مصيرا غير هذا المصير .

* * *

وأخيرا يحدد التبعة . فليس الخروج ضربة لازب على من يطيقون ومن لا يطيقون . فالإسلام دين اليسر ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها . والذين عجزوا عن النفرة لا تثريب عليهم ولا مؤاخذة لهم ، لأنهم معذورون :

« ليس على الضعفاء ولا على المرضى ، ولا على الذين لا يجدون ماينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله . ماعلى المحسنين من سبيل والله غفور رحيم . ولا على الذين إذا ماأتوك لتحملهم قلت لا أجد ماأحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ماينفقون» .

ليس على الضعفاء العاجزين عن القتال لعلة فى تكوينهم ، أو لشيخوخة تقعدهم ؛ ولا على المرضى الذين لا يستطيعون الحركة والجهد ؛ ولا على المعدمين الذين لا يجدون مايتزودون به .. ليس على هؤلاء حرج إذا تخلفوا عن المعركة فى الميدان ، وقلوبهم مخلصة لله ورسوله ، لا يغشون ولا يخدعون ، ويقومون بعد ذلك بما يستطيعونه ـ دون القتال ـ من حراسة أو صيانة أو قيام على النساء والذرية فى الوطن ، أو أعمال أخرى تعود بالنفع على المسلمين . ليس عليهم جناح ، وهم يحسنون بقدر مايستطيعون ، فلا جناح على المحسنين ، إنما الجناح على المسيئين .

ولا جناح كذلك على القادرين على الحرب ، ولكنهم لا يجدون الرواحل التى تحملهم إلى أرض المعركة . فإذا حرموا المشاركة فيها لهذا السبب ، ألمت نفوسهم حتى لتفيض أعينهم دموعا ، لأنهم لا يجدون ماينفقون .

وإنها لصورة مؤثرة للرغبة الصحيحة فى الجهاد ، والألم الصادق للحرمان من نعمة أدائه .

وإنها لصورة واقعة حفظتها الروايات عن جماعة من المسلمين فى عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ تختلف الروايات فى تعيين أسمائهم ، ولكنها تتفق على الواقعة الصحيحة .

روى العوفى عن ابن عباس : « وذلك أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمر الناس أن ينبعثوا غازين معه ، فجاءته عصابة من أصحابه فيهم عبدالله بن مغفل بن مقوى المازنى ، فقالوا : يارسول الله احملنا ، فقال لهم : « والله لا أجد ماأحملكم عليه » فتولوا وهم يبكون ، وعز عليهم أن يجلسوا عن الجهاد ولا يجدون نفقة ولا محملا . فلما رأى الله حرصهم على محبته ومحبة رسوله أنزل عذرهم فى كتابه .

وقال مجاهد : نزلت فى بنى مقرن من مزينة .

وقال محمد بن كعب كانوا سبعة نفر من بنى عمر بن عوف سالم بن عوف ، ومن بنى واقف حرمى ابن عمر ، ومن بنى مازن ابن النجار عبد الرحمن بن كعب ويكنى أبا ليلى ، ومن بنى المعلى فضل الله ، ومن بنى سلمة عمرو بن عتمة وعبدالله بن عمرو المزنى .

وقال ابن إسحاق فى سياق غزوة تبوك : ثم إن رجالا من المسلمين أتوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهم الباكون وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم من بنى عمرو بن عوف سالم بن عمير وعلية بن زيد أخو بنى حارثة ، وأبو ليلى عبدالرحمن بن كعب أخو بنى مازن ، وعمرو بن الحمام بن الجموح أخو بنى سلمة ، وعبدالله بن المغفل المزنى ، وبعض الناس يقول : بل هو عبدالله بن عمرو المزنى وحرمى بن عبد الله أخو بنى واقف وعياض بن سارية الفزارى ، فاستحملوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكانوا أهل حاجة . فقال : « لا أجد ماأحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ماينفقون » . .

بمثل هذه الروح انتصر الإسلام ، وبمثل هذه الروح عزت كلمته . فلننظر أين نحن من هؤلاء . ولننظر أين روحنا من تلك العصبة . ثم لنطلب النصر والعزة إن استشعرنا من أنفسنا بعض هذه المشاعر . وإلا فلنسدد ولنقارب والله المستعان .

انتهى الجزء العاشر . ويليه الجزء الحادى عشر مبدوءا بقوله تعالى : « إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء »

كتب للمؤلف

الكتاب	الطبعة	الناشر
١ ـ فى ظلال القرآن	(فى ثلاثين جزءاً)	دار إحياء الكتب العربية
٢ ـ العدالة الاجتماعية فى الإسلام	(طبعة رابعة)	» » » »
٣ ـ معركة الإسلام والرأسمالية	(» ثانية)	دار الإخوان للطباعة والصحافة
٤ ـ السلام العالمى والإسلام	(» ثانية)	مكتبة وهبة شارع إبراهيم بعابدين
٥ ـ دراسات إسلامية	(» أولى)	مكتبة لجنة الشباب المسلم
٦ ـ التصوير الفنى فى القرآن	(» ثالثة)	دار المعارف
٧ ـ مشاهد القيامة فى القرآن	(» ثانية)	» »
٨ ـ النقد الأدبى : أصوله ومناهجه	(» أولى)	دار الفكر العربى
٩ ـ أشواك	(» »)	دار سعد مصر بالفجالة
١٠ ـ طفل من القرية	(» »)	لجنة النشر للجامعيين
١١ ـ الأطياف الأربعة	(بالاشتراك مع إخوته)	» » »
١٢ ـ القصص الدينى	(بالاشتراك مع الأستاذ السحار)	» » »
١٣ ـ الشاطئ المجهول	(شعر)	... نفد
١٤ ـ كتب وشخصيات	(نقد)	... »
١٥ ـ مهمة الشاعر فى الحياة	(»)	... »
١٦ ـ نقد كتاب مستقبل الثقافة	(»)	... »
١٧ ـ المدينة المسحورة	(قصة)	... »

الكتب التالية

(١) نحو مجتمع إسلامى — (٢) أمريكا التى رأيت

(٣) حلم الفجر (شعر) — (٤) قافلة الرقيق (شعر)


Bibliotheca Alexandrina
0593943